نوريت بيلد- إلحنان (*)

شرعنة المجازر في كتب التاريخ المدرسية المتداولة في إسرائيل

ملخص

تستعرض هذه المقالة الروايات التي تنقلها ثمانية كتبٍ تاريخيةٍ تُدرَّس في المدارس الثانوية الإسرائيلية، ونُشِرت في الفترة الواقعة بين عاميْ ١٩٩٨ و ٢٠٠٩ [١]، وتسعى المقالة إلى البرهنة على أن هذه الكتب تُشرعِن هذه المجازر، أو بالأحرى تشرعن النتائج التي أفضت إليها، من خلال توظيف لغةٍ معقّدةٍ تتضمّن في مكوّناتها أساليب لفظية ووسائل بصرية.

توظّف هذه المقالة النظريات والأدوات التحليلية التي يطبّقها التحليل النقديّ للخطاب، والسيمياء الاجتماعية والتحليل المتعدّد الوسائط بهدف دراسة الإستراتيجيات اللغوية والمنطقية والعامة، والإستراتيجيات المتعدّدة الوسائط التي تستخدمها الكتب المدرسية في شرعنة المجازر. ويستند التحليل الذي تورِده هذه المقالة، في أساسه، إلى الدراسات التي نشرها فان ديجك (Van Dijk, 1997)، ومارتين روجو وفان ديجك (Martin Rojo and Van Dijk, 1997)، وفان ليوين (Van Leeuwen, 2000, 2007, 2008)، وفان ليوين ووُوداك (Van Leeuwen and Wodak , 1999)، وهودج وكريس (Hodge and Kress , 1993)، وكوفين (Coffin , 1997, 2006). وتفترض هذه المقالة أن كتب التاريخ المتداولة في إسرائيل تشرعن، في مضمونها، قتل الفلسطينيين باعتباره أداةً ناجعةً للمحافظة على أمن الدولة اليهودية ذات الأغلبية اليهودية. وتشير المقالة كذلك إلى أن فعل الشرعنة

(*) تدرِّس نوريت بيلد- إلحنان مادة تعليم اللغة في الجامعة العبرية وفي كلية دافيد يلين للمعلمين في القدس. وتركّز الدراسات التي لا تزال تعدّها منذ العام ١٩٩٥ على التعليم المدرسي، والخطاب العنصري في المدارس، والكتب الدراسية في إسرائيل، وتطوُّر اللغة المحكيّة والمكتوبة في المدارس، والحوار في الصفوف المتعددة الثقافات. وكتابها القادم هو بعنوان (*Books: Ideology and Indoctrination Palestine in Israeli School*) [فلسطين في الكتب المدرسية في إسرائيل: الأيديولوجية والتلقين] (وسوف تنشره دار توريس للنشر (Tauris) في لندن). وإلى جانب التدريس، تلقي إلحنان المحاضرات وتكتب المقالات عن القضايا المرتبطة بالاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. وبناءً على نشاطها في هذا المجال، نالت في العام ٢٠٠١ جائزة ساخاروف لحقوق الإنسان وحرية التعبير (*Sakharov Prize for Human Rights and the Freedom of Speech*)، التي يمنحها البرلمان الأوروبي، مناصفةً مع الروائي عزت الغزاوي من جامعة بير زيت. وإلحنان هي كذلك أحد الأعضاء المؤسسين لمحكمة راسيل لفلسطين (*Russell Tribunal on Palestine*) (بروكسل، آذار ٢٠٠٩)، وهي عضوٌ في دائرة الآباء: آباء فلسطينيون وإسرائيليون ثكالى من أجل السلام والمصالحة. كما تشترك إلحنان مع الدكتور سامي عدوان من جامعة بيت لحم في ترؤّس اللجنة الدولية للتعليم في ظل الاحتلال.

يهيّئ الشباب اليهود ويعدّهم كي يكونوا جنودًا صالحين وكي ينفّذوا ممارسات الاحتلال في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

الكلمات المفتاحية

تحليل الخطاب، الشرعنة التي تستهدف إفراز آثارٍ محدّدة، الأنواع، الشرعنة، مجزرة، التحليل المتعدد الوسائط، صناعة الخرافات، الفلسطينيون، العنصرية، السيمياء الاجتماعية، الوسائط الاجتماعية- الدلالية، الصهيونية.

في أشياء كهذه، لا ينبغي للمرء أن يُسلِم انقياده للمبالغات
وعلى المرء أن يكون واعيًا وأن يتوخّى الحذر: فهذه مسألة حياة أو موت
فقد يخطئ المرء – لا سمح الله – فيما ينقله. (Zach, 1996)

مقدمة

ارتُكبت المجازر، خلال حرب العام ١٩٤٨ وعقب إقامة دولة إسرائيل، بحقّ مواطنين فلسطينيين ممّن كانوا يقيمون فيما بات يُعرف بإسرائيل، وبحقّ اللاجئين الفلسطينيين في القرى والمخيمات التي نزحوا إليها في الأردن. وتستعرض بعض كتب التاريخ المدرسية التي تُدرَّس في المدارس الإسرائيلية (ولا سيما تلك التي نُشرت مؤخرًا في الأعوام ٢٠٠٤ و٢٠٠٦ و٢٠٠٩) هذه المجازر على أنها كانت مجرّد معارك روتينيةً أو عملياتٍ عسكرية ناجحة. وفي المقابل، تنظر بعض الكتب المدرسية إلى تلك المجازر على أنها كانت تشكّل انحرافًا عن الخطط الرسمية، ولكنها تُشرعِنها بسبب النتائج الإيجابية التي أفضت إليها – وهي إنشاء دولةٍ يهوديةٍ تتمتع بالتماسك والأمن وتقطنها أغلبيةٌ من السكان اليهود. وتشرعن الروايات التاريخية، من خلال عرض المجازر على أنها انحرافٌ عن الخطط المعدّة، أفعال الجيش وسلوك أفراده، والحكومة الإسرائيلية – التي زعمت بأنها فوجئت بأعمال القتل وأدانتها – والقواعد التي تحكم عملها كذلك.

تُعرَّف المجزرة على النحو التالي:

١. العمل أو الحادثة التي تنطوي على قتل عددٍ من الأشخاص الذين ليس لهم، في العادة، حولٌ ولا قوة أو لا يُبدون مقاومةً في ظل ظروف تتّسم بالوحشية والقسوة.
٢. القتل العمد الذي يتّصف بالقسوة أو الوحشية.[٢]

وتورِد بعض كتب التاريخ الرئيسة التي تدرَّس في المدارس الإسرائيلية ثلاثة حوادث قُتل فيها مواطنون فلسطينيون لم يكن لهم حول ولا قوة بصورةٍ متعمدةٍ أو وحشية:

- مجزرة دير ياسين في العام ١٩٤٨.
- مجزرة قبية في العام ١٩٥٣.
- مجزرة كفر قاسم في العام ١٩٥٦.

كما تذكر كتب التاريخ حادثةً اشتملت على قتل مواطنين يهود بصورة متعمدة، وهي حادثة سفينة ألتالينا (Altalena affair) التي وقعت في العام ١٩٤٨.

نستعرض فيما يلي تفاصيل هذه المجازر على الوجه الذي تَرِد به في كتب التاريخ 'العادية' التي كُتبت للجمهور العام، والتي لم تُصمَّم لغايات التدريس في المدارس الأساسية أو الثانوية.

١. مجزرة دير ياسين، ٩ نيسان ١٩٤٨ (Pappe, 2006) – هاجم جنودٌ ينتمون إلى المجموعات السرية 'المنشقّة' في منظمتيْ إتسل وهاغاناه قرية دير ياسين، غربي مدينة القدس، والتي كانت قد أبرمت معاهدة عدم اعتداء مع منظمة الهاغاناه[٣]، وقتلوا معظم سكانها. ويقدَّر عدد الضحايا الذين سقطوا في تلك المجزرة ما بين ١٠٠ و٢٤٥ مواطنًا فلسطينيًا – وهو عددٌ لا يزال محلّ جدل وخلاف حتى هذا اليوم[٤].
٢. حادثة ألتالينا، ٢٢ حزيران ١٩٤٨[٥] – كانت الحكومة المؤقتة في دولة إسرائيل الوليدة تتطلع إلى توحيد جميع المنظمات العسكرية في جيشٍ واحد. وأصدرت الحكومة أوامرها لمنظمة إتسل 'المنشقة' للتخلي عن كافة عمليات شراء الأسلحة التي كانت تقوم بها بصورةٍ مستقلة. وعندما رست سفينة ألتالينا، التي كانت تُقلّ ٩٣٠ مهاجرًا يهوديًا وتنقل أسلحةً لصالح منظمة إتسل، على ساحل إسرائيل، أصرّ رئيس الوزراء دافيد بن-غوريون في مطلبه على تسليم جميع الأسلحة. وبعد رفض منظمة إتسل، أمر بن-غوريون بقصف السفينة. وعلى الرغم من أن قبطان السفينة، مونرو فين (Monroe Fein)، رفع الراية البيضاء معلنًا استسلامه بعد قصف السفينة، واصلت القوات الحكومية إطلاق النار باتجاه المسافرين العزّل وباتجاه الجرحى الذين كانوا يسبحون في البحر. وقد قُتل خلال هذه الحادثة ستة عشر فردًا من منظمة إتسل وثلاثة جنود من قوات الدفاع الإسرائيلية.
٣. مجزرة قبية، ١٣ تشرين الأول ١٩٥٣ (Morris, 2000: 176–8) – عشية يوم ١٣ تشرين الأول ١٩٥٣، قتل فلسطينيون تسلّلوا إلى إسرائيل من الأردن امرأةً وطفليها في بيتهم في

قرية يهود (وهي قرية فلسطينية شرَّدت القوات الإسرائيلية سكانها الفلسطينيين منها واستوطنها مهاجرون يهود). وهرب المتسللون إلى قرية رنتيس، التي تبعد خمسة كيلومترات عن قبية. وفي ردّها على هذه العملية، هاجمت الوحدة (١٠١)، بقيادة الرائد أريئيل شارون، قرية قبية وقتلت ٦٩ مواطنًا فلسطينيًا وهدمت ٤٥ منزلاً.

٤. مجزرة كفر قاسم، ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦[٦]- بعد إقامة دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨، خضع المواطنون العرب الفلسطينيون لإمرة الحكومة العسكرية، التي فرضت عليهم استصدار التصاريح التي تتيح لهم الخروج من تجمّعاتهم السكانية والدخول إليها. كما فرضت هذه الحكومة نظام منع التجول على التجمعات السكانية الفلسطينية في كل ليلةٍ بين الساعة ٠٠ :٧ مساءً حتى الساعة ٠٠ :٦ صباحًا. وخلال الفترة التي سبقت اندلاع حرب العام ١٩٥٦ مع مصر، أعدّت الحكومة والجيش خطةً (عُرفت بخطة مول - Plan Mole)، والتي ترمي إلى تحويل الانتباه عن النوايا الحقيقية للإسرائيليين و'تشجيع' المواطنين الفلسطينيين المقيمين في المناطق القريبة من الحدود على الفرار إلى الأردن، ومن ثمّ قطع الطريق عليهم ومنعهم من العودة إلى ديارهم. وفي اليوم الأول من هذه الحرب، قرّر الجيش توسيع نطاق منع التجول الذي يفرضه على البلدات والقرى الفلسطينية من الساعة ٠٠ :٧ مساءً حتى الساعة ٠٠ :٥ من مساء اليوم التالي، ولم يعمم قادة الجيش هذا التغيير على مخاتير القرى إلا قبل نصف ساعةٍ من فرضه، بحيث لم يتمكّنوا من إخبار المزارعين الذين يعملون في حقولهم أو غيرهم ممن كانوا يتواجدون خارج قراهم به. ومع ذلك، كان الأمر العسكري الذي أصدره العقيد شدمي (Shadmi) يقضي بإطلاق النار على أي مواطنٍ فلسطينيٍّ يتواجد خارج منزله بعد الساعة ٠٠ :٥ مساءً وقتله.

وعلى الرغم من أن معظم صغار الضباط قرّروا الإحجام عن طاعة الأمر المذكور، عمل الملازم غابرييل داهان (Gavriel Dahan)، الذي كان يتولى القيادة على المدخل الغربي لقرية كفر قاسم، على إيقاف العربات والدراجات الهوائية والشاحنات التي كانت تُقلّ المزارعين الفلسطينيين من حقولهم، وأمرهم بالوقوف مع عائلاتهم في صفٍّ وأصدر أوامره للجنود 'بقتلهم'. وخلال ساعةٍ واحدة، قتل الجنود الإسرائيليون ٤٩ مواطنًا فلسطينيًا على المدخلين الشمالي والغربي للقرية نفسها. كما أجبر الجنود سكان قرية جلجولية المجاورة بدفن جثث هؤلاء المواطنين على عجلٍ في قريتهم في ليلة ذلك اليوم.

وبعد ستة أسابيع، أنكرت الحكومة الإسرائيلية خلالها هذه الحادثة وفرضت الرقابة على نشرها، لم يكن هناك بدٌّ من توجيه تهمة القتل العمد إلى الجنود. وقد زعم المدّعى عليهم بأنه كان يتوجّب عصيان الأوامر التي أصدرها إليهم مسؤولوهم، ولكن القاضي حكم بأنه كان يتعيّن عليهم الاستنكاف عن طاعة أمرٍ يظهر انعدام صفته القانونية بصورةٍ جليّةٍ، وحكم عليهم بالسجن لفتراتٍ تتراوح من ٧ سنواتٍ إلى ١٧ سنة. وأُطلق سراح جميع هؤلاء الجنود بموجب مرسومٍ رئاسيٍّ قضى بالعفو عنهم في شهر كانون الأول ١٩٥٩، كما أُعيدت إليهم رتبهم العسكرية. وفي العام ١٩٩٤، كتب الشيخ نمر درويش، مختار قرية كفر قاسم، رسالةً إلى رئيس الوزراء إسحق رابين، يطالبه فيها باعتراف الدولة بالمجزرة، غير أن الرسالة لم تلقَ أي رد. ولا يزال الإسرائيليون يستذكرون مجزرة كفر قاسم بسبب الحكم الذي لم يسبق أن أصدرت السلطة القضائية الإسرائيلية مثله، والذي اعتُبر بمثابة 'علامةٍ فارقةٍ وسَمت المجتمع الإسرائيلي وغرست في أذهان أجيالٍ من القادة والجنود الحدود الأخلاقية التي ينبغي عليهم العمل ضمنها'.[٧]

طبيعة الشرعنة: الخلفية النظرية

١. يستند الأساس النظري، الذي يستند إليها التحليل الوارد أدناه، لطبيعة الشرعنة وأنواعها المتباينة في جانبٍ كبيرٍ منه إلى الكتابات المنشورة في حقول السيمياء الاجتماعية والتحليل النقدي للخطاب، بما فيها كتب (Martin Rojo and Van Dijk, 1997; Van Dijk, 1997; Van Leeuwen and Wodak, 1999; Van Leeuwen, 2007, 2008).

يعرِّف مارتين روجو وفان ديجك (١٩٩٧ : ٥٦٠-١) الشرعنة على أنها 'عزو القبول للفاعلين الاجتماعيين، والأفعال والعلاقات الاجتماعية ضمن النظام المعياري'، في سياقات 'الأفعال التي تثير الجدل، أو الاتهامات أو الشكوك أو النقد أو الخلاف حول مجموعاتٍ من العلاقات والهيمنة والقيادة. ويقول فان ديجك (١٩٩٧ : ٢٥٦) بأن الشرعنة:

ترتبط بفعل الخطاب الذي يدافع به المرء عن نفسه، والذي يشترط كي يكون ملائمًا ظروفًا تستدعي من المتحدث أن يعرض الأسباب الجيدة أو الأسس أو الدوافع المقبولة التي دفعته إلى الإقدام على الفعل

الذي أدّاه في الماضي أو يؤديه في الحاضر والذي انتقده الآخرون، أو يمكن أن يكون محلّ انتقاد منهم [. . .] وتبرّر المؤسسات الأفعال التي تقدم عليها حينما تخشى قيام خلافٍ بشأن أفعالها أو إدانتها، أو الاعتراض أو الهجوم عليها.

وفي حالة المجازر، تكتسب الشرعنة بُعدًا **حكوميًا عامًا**، حيث تعمل الدولة على شرعنة أفعالها في جميع وزاراتها وأجهزتها 'بتوظيف القواعد والقيم المزعومة في الثقافة السائدة فيها' (Van Dijk, 1997: 255). فلا تُشرعن، الأفعال التي يُقْدِم عليها الحكّام، عندما تتوافق مع القواعد والقيم الثقافية والتقليدية، وعندما يمكن تفسيرها كذلك. فعلى سبيل المثال، لا تخضع أعمال التطهير العرقي التي نفذتها إسرائيل، والتي اشتملت على اقتراف مجازر لم تثر الجدل في حينها لأنها اقتُرفت بناءً على الأوامر الصادرة عن القيادة الصهيونية الرسمية والحكومة الإسرائيلية في مرحلةٍ لاحقة، أو بموافقتها، لإجراءات تستهدف شرعنتها في كتب التاريخ المدرسية المتداولة في إسرائيل. فمن المعروف على سبيل البداهة أن تلك المجازر مشرعَنة كونها تُسمى في العادة 'عمليات'. وينسحب ذات هذا الأمر على عمليات التطهير العرقي التي مارستها إسرائيل في مدينتي اللّد والرملة الفلسطينيتين في العام ١٩٤٨، أو في القرى الواقعة بالقرب من دير ياسين، كقريتيْ القسطل وخلدة، اللتين تعرّضتا لهذه العمليات 'بموجب خطة داليت (Plan Dalet) الرسمية'، على نحو ما تخبرنا به الكتب المنشورة في هذا الشأن (Avieli-Tabibian, 2001: 313–14; Nave et al., 2009)، وذلك مع الموافقة الضمنية التي أبداها رئيس الحكومة بن غوريون (Bar-Navi, 1998). ومع ذلك، فقد حُذفت التفاصيل التي تدفع الطلاب إلى التساؤل عن الأوامر التي صدرت من القيادة العليا، من قبيل قتل ٤٢٦ رجلاً وامرأةً وطفلاً في اللد والرملة، من بينهم ١٧٦ مواطنًا قُتلوا داخل المسجد، وتهجير ٥٠،٠٠٠ مواطنٍ من ديارهم في جوف الليل 'وتجريدهم من ممتلكاتهم' (Pappe, 2006: 167).

الأساس الأيديولوجي لشرعنة المجازر في كتب التاريخ المدرسية في إسرائيل

قد يكون إدراج المجازر في الكتب المدرسية ينمّ عن مظهرٍ من مظاهر الإجراءات التعليمية الشجاعة. ولكن التحليل يبيّن لنا أنه على الرغم من أن هذه الكتب قد تشجب الطريقة الفعلية التي نُفذت بها أعمال القتل، فإن جميع الروايات التي تسردها توظّف أدواتٍ سيميائيةً من أجل تعزيز الادعاءات التي تشرعن المجازر على نحوٍ يبرر النتائج التي تمخّضت عنها. وينبع معظم هذه الادعاءات من الأيديولوجية الصهيونية- الإسرائيلية التي '[. . .] تعزّزها خرافة الدولة التي تعيش فيها أمةٌ نقيةٌ تحتضن إمكانية تنفيذ التطهير العرقي في المواضع التي تختلط فيها الجغرافيا' (Yiftachel, 2006: 60).

ولا تأتي الكتب التي تدرَّس في مدارس إسرائيل على ذكر الغاية المتمثلة في إقامة دولةٍ تخلو من العرب من أرضها بصورةٍ صريحة، ولكنها تُفصح عن الأهمية القصوى لضمان الأغلبية اليهودية فيها، وذلك على نحو ما تورده الفقرة التي تختتم الفصل الذي يستعرض رواية مجزرة دير ياسين (Bar-Navi, 1998: 195):

> في نظر الإسرائيليين، فإن هروب العرب [الذي ساعدت مجزرة دير ياسين عليه] قد أوجد حلاً للمشكلة الديمغرافية المخيفة، بل إن شخصًا معتدلاً كوايزمان [أول رئيس لدولة إسرائيل] وصف ذلك بأنه 'معجزة'.

للأيديولوجية وجهان متناقضان، هما التكافل والقوة. ومع ذلك، فهذان الوجهان 'يتشابكان مع بعضهما في خليطٍ معقّد' (Hodge and Kress, 1993: 157). فبينما 'يخفي التكافل الاختلافات القائمة، تعزّز القوة هذه الاختلافات'. ويضيف هودج وكريس بأن الحالة المركّبة من التكافل والقوة توفّر وسائل الشرعنة اللازمة للحكام والمؤسسات، ولا سيما في المواضع التي تسود فيها ممارسات التمييز.

ويشكل عمل التكافل والقوة من الناحية الأيديولوجية الأساس الذي يقوم عليه مستويان من الإثنية في إسرائيل (Yiftachel, 2006: 18). فعلى مستوى القومية الإثنية، تتوطّد الأمة اليهودية الإثنية من خلال طمس الاختلافات والفروقات القائمة بين مختلف الطوائف العرقية اليهودية، وذلك في الوقت الذي يجري فيه عزل غير اليهود وتهميشهم. وعلى مستوى الطائفة العرقية، يحظى أبناء الطوائف العرقية اليهودية بالامتيازات بينما يُحرَم أبناء الطوائف العرقية غير اليهودية من الامتيازات المستحقة لهم.[٨] وتعمل الأيديولوجية الصهيونية- الإسرائيلية، التي تؤكّد على الحقوق التاريخية اليهودية في أرض إسرائيل/ فلسطين، والتهديد الذي يشكّله العرب وضرورة المحافظة على نظام الفصل العنصري لضمان الأمن لليهود، على شرعنة حالة انعدام المساواة العرقية التي تسود إسرائيل وهيمنة اليهود فيها، من الناحية العنصرية، وهو ما يشكل الأساس التي تقوم عليه شرعنة طرد المواطنين الفلسطينيين العرب وتهجيرهم من ديارهم وارتكاب المجازر بحقهم.

شرعنة القواعد والقوانين

تتمثل علامة الشرعية في إجماع الشعب عليها. (Lyotard, 1984: 30) القاعدة هي التي تحوّل العادة الجارية إلى قانون. (Lyotard, 1988: 142)

يشير مارتين روجو وفان ديجك في كتابهما المنشور في العام ١٩٩٧ إلى أن الشرعنة تتحقّق من خلال الخطاب المقنع (أو الخطاب الذي يقوم على أساس التلاعب والتأثير)، الذي يصف الأحداث على نحوٍ يعود بالفائدة على الجماعة أو المجتمع بعمومه، بحيث يعيد تفسير هذه الأحداث ويقدمها على أنها مقبولة، أو مبرَّرة على الأقلّ من حيث إمكانية الدفاع عنها من الناحية الأخلاقية أو السياسية في ظل 'الظروف القائمة'، بمعنى أثناء الأزمات أو في مواجهة التهديدات الخارجية.

وفي شرعنة الأحداث التي يثور الجدل حولها، يتعين على الكاتب أن يقنع قرّاءه بأن القواعد المشتركة كانت تتناسب مع كل موقف بعينه، وأن الحادثة كانت واحدةً من الأفعال التي تقضي القواعد بجوازها أو بضرورتها (Finlayson, 2005: 36–7). وبذلك، يعتبر تحليل الشرعنة خارج سياقها مستحيلاً لأنها 'تقوم في أساسها على مبدأ الصواب والخطأ [. . .] وتبرَّر بما يتوافق مع القيم والأصول المحددة من ناحية ثقافية' (Van Leeuwen, 2007: 101). وفضلاً عن ذلك، يشير فان ليوين إلى أن 'المشرِّعين المعاصرين باتوا يعتقدون أكثر من أي وقت مضى بأنه إذا كان معظم الناس يمارسون الشرعنة، فلا يمكن أن يعتريها الخطأ، وهو ما يوجِب تقنينها.' وعلى الرغم من أن الفلسطينيين – سواءً كانوا مواطنين أو غير مواطنين في الأراضي المحتلة – يخضعون للتمييز بموجب أحكام القوانين النافذة في إسرائيل، فإن الممارسات التمييزية والتدابير المُجحفة التي تمارَس بحق هؤلاء الفلسطينيين تسبق سنّ القوانين التي تشرّعها وتُسبغ الصفة القانونية عليها، مما يؤدي إلى إلغاء الأحكام الصادرة عن المحاكم في هذا الشأن.[٩] فالادعاءات التي تشرعن قتل الفلسطينيين تُظهِر المجازر على أنها 'أعمالٌ تنسجم مع القواعد المرعية' وذلك بحسب القواعد التي توافق الحالة الإسرائيلية والحالة الغربية بصورة عامة، كالحرب على الإرهاب أو حماية المواطنين. فعلى سبيل المثال، 'كان المتسللون يعبُرون إلى إسرائيل لكي يرتكبوا أعمالاً إرهابية، وكانت الدولة مجبَرةً على حماية مواطنيها' (Avieli-Tabibian, 2001: 331، مجزرة قبية)، أو 'كانت العمليات [التي كانت مجزرة قبية واحدةً منها] تهدف أيضًا إلى تعزيز الشعور بالأمن ورفع معنويات مواطني دولة إسرائيل، الذين عانوا من التهديد الدائم في حياتهم – في بيوتهم وفي حقولهم وعلى الطرق وفي نزهاتهم' (Domka et al., 2009: 160).

وغالبًا ما كانت القواعد التي تخصّ الحالة الإسرائيلية تستند إلى سلطة التوراة. وبذلك، يتوافق تبرير ارتكاب مجزرة قبية، باعتبارها تشكّل 'الرد المناسب' على قتل أمّ يهودية وطفليها، في جانبٍ كبيرٍ منه مع القواعد 'التوراتية'، من قبيل 'أقتل أي واحد يحاول قتلك'، مع ما يقترن بها من التفسيرات الحديثة بشأن الردع، ومبدأ الانتقام القائم على أساس 'العين بالعين'.[١٠] وفيما يتصل بمجزرة قبية وغيرها من 'أعمال الانتقام' المماثلة، يستعرض دومكا وآخرون (Domka et al., 2009) عددًا من جريدةٍ صدرت في العام ١٩٥٦، كان عنوانها الرئيسي: 'قتل ٥٠ مصريًا وأسر ٤٠ آخرين – أكبر عملية منذ حرب الاستقلال'. ويطرح دومكا وآخرون بعد عرض هذا العنوان السؤالين التاليين:

'كيف يؤثر مثل هذا العنوان على معنويات المواطنين الإسرائيليين؟'

'لماذا اختارت إسرائيل طريقة «الانتقام» على الرغم من أنها اشتملت على قتل أناسٍ أبرياء؟'

وتكمن الإجابات الجليّة على هذين السؤالين، بحسب المعايير الإسرائيلية، في: الانتقام والردع، اللذين يسهمان معًا في رفع معنويات المواطنين وفق ما تمليه المعايير الإسرائيلية.[١١]

ويطرح نافيه وآخرون (Nave et al., 2009: 205) سؤالاً حول 'أعمال الانتقام' المذكورة: هل تعتقد بأن أعمال الانتقام كانت كافيةً لردع العرب عن مهاجمة إسرائيل؟

أنماط الشرعنة

يميّز فان ليوين (Van Leeuwen, 2007) بين أربع فئاتٍ من الشرعنة:

١. **التفويض**: الشرعنة عن طريق الرجوع إلى سلطة التقاليد والأعراف والقانون، والأشخاص المخوّلين بنوعٍ ما من أنواع السلطات المؤسساتية.

٢. **التقييم الأخلاقي**: الشرعنة عن طريق الرجوع إلى خطاب القيمة أو أنظمة القيمة، التي لا يتمّ التصريح بها أو إخضاعها للنقاش، وإنما يجري التلميح إليها من خلال التقييمات التي 'تولّد مفهومًا أخلاقيًا' (٢٠٠٧: ٩٧).

٣. **التبرير**: الشرعنة 'عن طريق الرجوع إلى الأهداف التي يسعى الفعل الاجتماعي المُمأسس إلى تحقيقها وإلى استخداماته والآثار المتمخضة عنه' (٢٠٠٧: ٩١).

٤. **صناعة الخرافات**: الشرعنة التي تنقلها الروايات التي تكافئ

محصّلتها الأفعال المشروعة وتفرض العقاب على الأعمال غير المشروعة.

وتساعد هذه الفئات على شرعنة المجازر التي تسردها كتب التاريخ التي تدرَّس في المدارس الإسرائيلية.

صناعة الخرافات

يحكم 'المنطق الخرافي' سرد الحدث (وحبْكته) في الروايات التي نستعرضها أدناه. ويعبّر هذا المنطق عن 'نموذجٍ منطقيٍّ قادرٍ على التغلّب على التناقض وتجاوزه' (Noth, 1995: 376). وتتكشّف قصة المجزرة بطريقةٍ تتم فيها موازنة الفعل السلبي أو حتى مكافأته من خلال تداعياته الإيجابية، كالانتصار أو الإنقاذ، والصراع بين الخير والشر الذي ينتهي بانتصار الخير، وهو ما يشكّل النتائج الإيجابية بالنسبة لإسرائيل، على النحو التالي:

مجزرة دير ياسين: ترتّب على قتل الفلسطينيين الوادعين هروبُ فلسطينيين آخرين، وهو ما مكّننا من إقامة دولتنا اليهودية المتماسكة (جميع الكتب).

مجزرة قبية: ولّد قتل الفلسطينيين في بيوتهم بعض الثقة لدى اليهود في منازلهم (Avieli-Tabibian, 2001)، وساهم في رفع معنويات جيش الدفاع الإسرائيلي وتعزيز كرامته (Inbar, 2004; Blank, 2006; Nave et al., 2009).

مجزرة كفر قاسم:

١. تسبّبت مجزرةٌ بربريةٌ في صدور حكم مستنير (Avieli-Tabibian, 2001; Domka et al., 2009; Nave et al., 2009).

٢. شكّلت المجزرة – التي ساعدت الحكومة العسكرية نفسها وحظر التجول المستمر الذي كانت تفرضه على القرية على ارتكابها – نقطة البداية في عملية انتهت (بعد عدّة سنوات) بإقصاء هذه الحكومة العسكرية ذاتها (Bar-Navi, 1998).

حادثة ألتالينا: ساعد قصف السفينة، الذي تسبّب في مقتل لاجئين يهود جاؤوا لتقديم المساعدة والإنقاذ، إسرائيل على التحوّل إلى عضوٍ في نادي الدول التي تتمتع بقدرٍ متقدمٍ من التنظيم (Bar-Navi, 1998).

الشرعنة التي تستهدف إفراز آثارٍ معينة

في الشرعنة التي تهدف إلى تحقيق آثار محددة، 'يُنظَر إلى الغاية من الزاوية الأخرى، باعتبارها أمرًا حصل بالفعل، وليس باعتبارها أمرًا تم، أو كان يمكن التخطيط له مسبقًا' (Van Leeuwen, 2007: 103).

وتعتبر **الشرعنة التي تسعى إلى تحقيق آثارٍ معينةٍ** جزءًا من **التبرير الذرائعي**، الذي يشكّل بحدّ ذاته جزءًا من **تبرير الشرعنة** نفسها. ويفضي **التبرير الذرائعي** إلى شرعنة الأفعال 'لأنها تتقاطع مع معيار **المنفعة**، وهو ما يتم 'عن طريق الرجوع إلى الغاية أو الوظيفة التي تؤدّيها، والحاجات التي تلبّيها' (Van Leeuwen, 2007: 105).

ويعتبر **التبرير الذرائعي** شائعًا في شرعنة المجازر بدرجةٍ أكبر من **التسويغ النظري** الذي يشرعن الممارسات عن طريق إحالتها إلى النظام الطبيعي للأشياء، وهو يستند إلى ما إذا كان الفعل يقوم في أساسه على نوعٍ ما من الحقيقة أم لا، وعلى 'الطريقة التي تكون عليها الأشياء'، وذلك على منوال أن 'الشيء الوحيد الذي يفهمه العرب هو القوة'(Avieli-Tabibian, 2001: 273، مجزرة قبية).

وبما أنه لا يمكن عرض المجازر في الكتب المدرسية باعتبارها أفعالاً كانت تسعى إلى إنجاز أهدافٍ معينةٍ، فعادةً ما تتم التعمية على الأسباب التي وقفت وراء تنفيذ أعمال القتل وإبراز الآثار التي ترتبت عليها وتجليتها، وهو ما يشكّل التبرير المناسب لها. فعلى سبيل المثال، 'وُهِب المجتمع اليهودي الكثير من النجاحات العسكرية على مدى الشهور التي تلت ذلك (= مجزرة دير ياسين)' (Avieli-Tabibian, 1999: 284). ويحمل الفعل 'وُهِب' ذات المدلول الذي يؤديه الفعل 'كافأ' أو العبارة 'فاز بجائزة' في اللغة العبرية. فمن خلال استخدام مثل هذه الكلمات البهيجة لوصف تداعيات المجزرة (حيث يكتب بار– نافي (Bar-Navi) على هذا المنوال فيقول بأن المجزرة لم 'تدشِّن' هروب العرب، وإنما 'عملت على تسريع وتيرته بدرجةٍ كبيرة')، فإن الروايات التاريخية الواردة في هذا الشأن تحتوي على تقييمٍ ضمنيٍّ يقضي بأنها كانت تشكّل أمرًا إيجابيًا.

ومع ذلك، لا تُعرَض 'النجاحات' العسكرية على أنها السبب الذي كان يقف وراء ارتكاب المجزرة، وإنما تتحوّل إلى السبب الاستدلاليّ الذي يشرعنها. وعلى هذا المنوال، فقد أفضت مجزرة قبية إلى 'استعادة معنويات الجيش وكرامته وساعدته على التحوّل إلى جيش صارم يملك قوة الردع وتستطيع يده الطولى أن تصل إلى العدوّ في عقر داره' (Blank, 2006).[١٢]

ولا تشكّل الآثار المترتبة على الشرعنة، في أي حال من الأحوال، نتائج مباشرةً للمجازر، وإنما تشير إلى محصّلتها وما تمخّض عنها، وغالبًا ما يتمّ ذلك دون علم مقترفيها ودون وجود 'ارتباطٍ شبه قانوني' بين هذه الأفعال والتداعيات التي ترتّبت عليها.

التقييم الأخلاقي

ترتبط الأخلاق والمنفعة السياسية مع بعضهما البعض في جميع الروايات التي ندرسها في هذه المقالة. فهذه الروايات تتحدث عن 'الدلالات الأخلاقية والسياسية' أو عن 'العبء الأخلاقي والسياسي' الذي يقع على كاهل الحكومة العسكرية، وخلاف ذلك. وكما يفترض فان ليوين (٢٠٠٧: ١٠٥): 'في الخطاب المعاصر، يتباعد إضفاء الصفة الأخلاقية والتبرير عن بعضهما البعض [. . .] ففي حالة التبرير، تبقى الأخلاق منحرفةً ومحجوبةً، حتى لو كان التبرير لا يؤدي عمله في الشرعنة دونها'.

ومن الأشكال المحددة التي يوظّفها التقييم الأخلاقي في هذه الروايات **التطبيع (naturalization)**، الذي 'ينكر في واقعه الأخلاق ويستبدل الأنظمة الأخلاقية والثقافية بـ" النظام الطبيعي" حيث «تعني الصفة طبيعيّ مبرَّرا أو صائبا». وفي مثل هذه الحالات، «تصبح الأخلاق والطبيعة متشابكتين» (Van Leeuwen, 2007: 99). وعلى سبيل المثال، يستشهد بار- نافي (1998: 184) بما قاله ناتان يلين مور (Nathan Yellin Mor)، قائد الجنود الذين ارتكبوا مجزرة دير ياسين، لشرعنة اقتراف هذه المجزرة:

> أنا أعلم أن مثل هذه الأشياء تحدث في رحى المعارك، وأنا أعلم كذلك أن الناس لا يخطّطون لتنفيذ هذه الأشياء بشكلٍ مسبق. إنهم يمارسون القتل لأن أصدقاءهم قُتلوا، وهم يريدون انتقامًا سريعًا. أنا أعلم أن الكثير من الأمم والجيوش تُقْدِم على مثل هذه الأشياء.

ويتقارب التطبيع مع ما يسميه فان ليوين (٢٠٠٧: ١٠١) **سلطة الانسجام (authority of conformity)**، التي 'تستند إلى الحالة السوية وتقوم على أساس المعرفة بأن كل شخص يفعل ذلك'. ففي مثل هذه الحالات، 'تكمن الإجابة عن السؤال الذي يستفسر عن السبب «لماذا» [. . .] في «لأن كل شخص آخر يفعل ذلك»، أو «لأن هذا ما يفعله معظم الناس». وإذا «كان كل شخص آخر (أو معظم الناس) يفعلونه، فكذلك يجب عليك (أو أنك تستطيع أنت) أن تفعله أيضًا». فلا يجوز الجدال في هذا الأمر'. وفي هذا المثال الذي يساوي بين القتلة و'كل شخصٍ' أو 'كل أمةٍ'، فإن يلين مور إنما يطبِّع فعل القتل ويقصيه عن القياس الأولي الذي خرج به هو نفسه بشأن الجرائم التي اقترفها النازيون ('حينما أتذكر كيف اقتيدت أمي وأختي إلى المذبحة، فأنا لا أستطيع أن أقبل هذه المجزرة'). فإذا كان كل شخصٍ آخر يفعل ذلك، فتلك 'حالة طبيعية'، وبالتالي فهي مشروعة، في ظل هذه الظروف الخاصة'.

يتم بلوغ الشرعنة الأخلاقية من خلال التعميم والتجريد والتقييم أو تقدير القيمة (Van Leeuwen, 2007: 99). ويعبّر **التجريد** عن 'طريقة التعبير عن التقييمات الأخلاقية عن طريق الاستشهاد بالممارسات (أو بواحدٍ أو أكثر من الأفعال التي تؤلّفها أو ردود الأفعال عليها) بطرق مجردة «تضفي السمة الأخلاقية» عليها من خلال تجريدها من الخاصية التي تربطها بالخطاب الذي يتناول القيم الأخلاقية'. وبذلك، تكتسب مجزرة قبية سمةً أخلاقيةً من خلال تعريفها بأنها 'إجراءٌ عقابيٌّ' (Avieli-Tabibian, 2001) أو بأنها 'ردّ فعل إسرائيل على العمل العدواني الذي شنّه العرب' (Bar-Navi and Nave, 1999).

التقييم

يمكّن نظام التقييم المؤلفين من 'الكتابة بطريقة تطمس مواقفهم وتخفيها عن المشاهدة' و'تحوّل المؤرخ إلى حكمٍ نزيهٍ وحياديٍّ للحقيقة' (Coffin, 2006: 140). وتقول كوفين إنه يمكن العثور على التقييمات في أية مادةٍ من مواد المعجم أو النحو وهي خاصة بهذا النوع. وفي الروايات التي تستعرضها كتب التاريخ التي نتناولها في هذه المقالة، تعبّر التقييمات بصورةٍ رئيسيةٍ عن **الحكم (appreciation)** و**التقدير (judgement)**، حيث يشير الحكم إلى 'مأسسة الشعور' (Martin and White, 2005: 44) لأنه 'يعمل على تقييم السلوك الإنساني عن طريق الاستشهاد بمجموعةٍ من القواعد المُمأسسة (إطار أخلاقي) التي تبيّن الطريقة التي يتعين، أو لا يتعين، على الناس التصرف من خلالها'.

وينطوي الحكم على فئتين:

١. **الاحترام الاجتماعي (social-esteem)** الذي يتمّ بموجبه تقييم 'الحالة السويّة' (هل سلوك الشخص غير عادي أو خاص؟)، والمقدرة (هل يملك الشخص الأهلية؟) والتماسك (هل يمكن الاعتماد على الشخص أو هل هو ملتزم أو هل يتمتع بالجسارة والإقدام؟ إلخ)
٢. **الرادع الاجتماعي (social sanction)** الذي يتم بموجبه تقييم الصدق (هل الشخص صادق؟) واللياقة (هل الشخص يتحلّى بالأخلاق، ولا يخضع للتأنيب؟) (Coffin, 2006: 139–45). وتستخدم الروايات التاريخية المذكورة **الرادع الاجتماعي** في الحالات التي تنزع فيها الصفة الشرعية عن الأحداث الواقعة، وذلك بمعنى أن الجنود الذي نفذوا أعمال

القتل في قرية دير ياسين كانوا 'منشقّين'، وأن النظام الذي كان سائدًا في قرية كفر قاسم 'لم يكن قانونيًا'.

ومن فئة **التقدير**، توظّف الروايات التاريخية في جانبٍ كبيرٍ منها **التقدير الاجتماعي (social valuation)**، الذي يمكن أن يعبّر عن الإعجاب أو الانتقاد ويراعي البنية المؤسساتية المحددة المتصلة به (Martin and White, 2005). ويُستخدم كلٌّ من **الاحترام الاجتماعي** و**الرادع الاجتماعي** من أجل تصوير مقترفي المجازر على أنهم أفرادٌ يتمتعون بالكفاءة وبالاستقامة الأخلاقية في المجتمع الإسرائيلي، بمعنى أن جنود الوحدة (١٠١) الذين اقترفوا مجزرة قبية 'أثبتوا تميّزهم في جرأتهم' (Bar-Navi, 1998) و'كانوا كلّهم متطوعين' (Avieli-Tabibian, 2001) أو كانوا 'محاربين رائعين' (Inbar, 2004).

الشرعنة باستخدام السلطة الشخصية

يشير فان ليوين (٢٠٠٧ : ٩٤) إلى أن 'أحد أشكال الشرعنة وأحد محتوياتها يتأتّى من مقولة «لأنني أقول ذلك»، حيث يعّبر الضمير المتصل في «لأنني» عن شخصٍ مخوَّل بسلطةٍ من نوعٍ معين'. فعندما يصرّح يلين مور بقوله: 'أنا أعلم أن الكثير من الأمم والجيوش تُقْدم على مثل هذه الأشياء' دون أن يذكر أي مثالٍ على ذلك، فهو إنما يستند إلى سلطته الشخصية بصفته قائدًا وخبيرًا. وعندما يستشهد البعض بالرئيس وايزمان الذي قال بأن هروب 'عرب إسرائيل' كان بمثابة معجزة، فإنه بذلك يوظف سلطته لشرعنة المجزرة والتبعات التي تمخّضت عنها.

كما تشتمل الشرعنة باستخدام السلطة الشخصية على الثناء (commendation) من خلال القدوة، وهو ما تحقّقه الروايات التي تتناولها هذه المقالة بصورةٍ رئيسيةٍ من خلال تمجيد الصور والشعارات، التي تصف مقترفي المجازر على أنهم أبطال أفذاذ. وبذلك، يستطيع المرء أن يضيف إلى فعل الشرعنة فئة الشرعنة متعددة الوسائط.

الشرعنة المتعددة الوسائط

يمكن التعبير عن القيم الأخلاقية من خلال وسائط بصرية أو تمثيلها بواسطة رموز بصرية (Van Leeuwen, 2007: 107). وفضلاً عن الاستمرار في بثّ الخرافة الإسرائيلية حول الموت الجميل (Zertal, 2004)، فإن روايات المجازر تعزّز خرافة 'القتلة الوسيمين' باستخدام وسائط بصرية تُظهِر المحاربين – الذين يعتبرون 'أكثر الآخرين أهميةً' من الشباب الإسرائيلي – الذين يشاركون في الأعمال البطولية. وفي المقابل، لا يتم تمثيل جميع القتلة من خلال وسائط بصرية. فأولئك الذين لا يسود الاعتقاد بأنهم يشكّلون القدوة – كالقتلة الذين ارتكبوا مجزرة كفر قاسم والذين كانوا من أفراد حرس الحدود ممن يعتبرون جنودًا ذوي شأن أدنى أو جنودًا مهمّشين، أو القتلة الذين شاركوا في حادثة ألتالينا التي تمثّل وصمةً في جبين الصهيونية والتكافل بين اليهود – لا يظهَرون أبدًا. وكذلك، فلا يجري إظهار القتلة 'المنشقين' الذين اقترفوا مجزرة دير ياسين، على الرغم من أننا نرى بدلاً منهم أفراد ميليشيا الهاغاناه الذين نفّذوا التطهير العرقي، ومنحوا صفةً شرعيةً لعملهم هذا، في قرية القسطل الفلسطينية التي تبعد حوالي ثلاثة كيلومترات عن قرية دير ياسين، كما يقول ذلك أفييلي – تابيبيان (Avieli-Tabibian (2001)). وليست عملية القسطل بحاجةٍ إلى الشرعنة لأنها كانت تشكّل جزءًا من «الخطة داليت» (Plan D) الرسمية.

وتُظهِر الصور الجنود وهم في مواقف 'رجوليةٍ' مع ما يقترن بها من علاماتٍ تعبّر في مضمونها عن التميّز والبطولة في إسرائيل. وتَرِد صورةٌ من هذه الصور مع روايتين حول مجزرة قبية، حيث يظهر جنود الوحدة (١٠١) – الذين يتزعّمهم أريئيل شارون – مع رئيس هيئة الأركان موشيه دايان الذي جاء ليهنّئهم على فعلتهم. ويرتدي الجنود في هذه الصورة القبّعات العسكرية الحمراء الخاصة بالمظليين، والبزّات العسكرية ذات اللون الكاكي الغامق، وأوسمة المظليين وأحذيتهم الحمراء. ولا تمثّل الصورة مجرد استطرادٍ للنص اللفظي – فهي لا تفصِح عن هوية هؤلاء الجنود – وإنما تشكّل أداةً وُظِّفت من أجل شرعنة ما قاموا به من أفعال، وذلك لأنها تُظهر أولئك الرجال الذين كانوا يمثّلون المعايير العليا في الجيش الإسرائيلي والذين تبوّأوا، فيما بعد، أعلى المناصب السياسية في إسرائيل. فمثل هؤلاء الأبطال لا يمكن أن يكونوا قد أقدموا على ارتكاب أخطاءٍ غير مبررة. ويضيف فان ليوين بأن 'حقيقة أن هذه النماذج التي تتبنّى سلوكًا معينًا، أو تؤمن بأشياء معينة، تعتبر كافيةً من أجل شرعنة [أفعالهم] والأفعال التي يُقْدِم عليها أتباعهم' (٢٠٠٧ : ١٠٣). ويشير نافي وآخرون (Nave et al., 2009: 204) إلى أن هؤلاء الجنود الذين وُهِبوا 'شجاعةً فائقة وقدرةً على الارتجال والصمود في أحلك الظروف وعلى التماسك والولاء لأصدقائهم المصابين أضحوا يمثلون خرافة الجندي المقاتل في جيش الدفاع الإسرائيلي'. كما تشكل الصور البطولية، في جميع الروايات التاريخية التي وقفنا عليها،

'أقوى شكل من أشكال التواصل من الناحية الأيديولوجية، لأنها [تحتلّ] مكانةً لا يجوز أن يختلف عليها اثنان، وهي توحّد المشاركين في فعل التواصل' (Hodge and Kress, 1993: 165).

تصميم الشرعنة

من الوسائل التي توظّفها الشرعنة ترتيب العناصر، بحيث يمكن معها خلق مسارٍ أو قصةٍ يفضي بالقارئ إلى تبنّيها. وبذلك، تُرفَق الصور البطولية أو تُربط، بواسطة عوامل القوة، بالأغاني التي تمجد أفعال الجنود. وكقاعدةٍ عامة، تعمل 'الأغاني والأشعار على تثبيت الذكريات الجماعية' (Wertsch, 2002: 52)، وتحوّل الروايات إلى خرافات (Barthes, 1957). وفي الرواية التي يستعرضها أفييلي- تابيبيان (Avieli-Tabibian, 2001) حول مجزرة دير ياسين، نجد أغنية «رفاق السلاح» التي ألّفها حاييم غوري (Hayim Guri)، 'الشاعر الذي حاز على وسام حرب الاستقلال'، والتي تمجّد جنودنا الوسيمين والشجعان الذين يشدّ الدم وحدتهم ويوطّدها. وفي روايته حول مجزرة قبية (Avieli-Tabibian, 2001)، تظهر صورة الوحدة (١٠١) في «الصخرة الحمراء»، وهي أغنية تخلد الشباب الإسرائيليين 'الجسورين' في حقبة الخمسينيات من القرن الماضي و'الذين تحركهم أحلامهم'، حيث اجتازوا الحدود مع الأردن بصورة غير قانونية 'كي يشاهدوا مدينة البتراء الوردية ويموتوا بعد ذلك'. فالجنود الذين يظهرون في هذه الصور يجسّدون تلك الأغاني. وفي كتاب بار- نافي ونافي (Bar-Navi and Nave)، نرى الصورة البطولية للوحدة (١٠١) مرتبطةً ارتباطًا قويًا في اتجاهٍ موازٍ مع لافتةٍ انتخابيةٍ لحزب العمل الحاكم. وقد كتب على هذه الصورة، التي تُظهر رجلاً عربيًا متخفّيًا يستهدف الطائرات والسفن التي تنقل المهاجرين اليهود إلى شواطئ إسرائيل، 'النموّ على الرغم من الحصار'. فالجنود هم الردّ المادي على التهديد الذي يكتنفهم أو يكتنفنا. ووفقًا لما يقوله أفييلي-تابيبيان (Avieli-Tabibian, 1999, 2001)، تبرز التصاميم التي أُعدَّت حول مجزرة دير ياسين المصاعب والمشاقّ التي أوقعها سكان القرية العرب باليهود في القدس المحاصرة، بالإضافة إلى الإنجازات التي تحققت بتطهير القرى العربية.

وقد تشتمل التصاميم المستخدمة في تعزيز شرعنة المجازر المرتكبة على شعارات تمجيدية تختلف عن النص الرئيسي الذي ترد فيه. ففي إحدى الروايات المذكورة حول مجزرة قبية (Bar-Navi and Nave, 1999: 273)، يزعم التعليق الوارد تحت الصورة البطولية للقتلة الذين اقترفوا هذه المجزرة بأن القرية كانت عبارة عن 'قاعدةٍ انطلاق للإرهابيين'، وهو ما يشرعن ارتكاب المجزرة، وذلك على الرغم من أن الرواية تشير في متنها، وبلا مواربة، إلى أن معظم عمليات التسلل كانت عبارة عن 'محاولات قام بها أبناء القرية للعودة إلى منازلهم، ولم يكن سوى القليل منهم مسلحين أُرسِلوا لجمع معلومات استخباراتية أو تنفيذ أعمال إرهابية.'

السياق الذي تجري فيه شرعنة المجازر

يساعد ترتيب النصّ في خلق السياقات اللازمة لفعل الشرعنة. وفي هذا الإطار، يوظف إنبار (Inbar, 2004) قرائن أو بالأحرى أساليب نصية لشرعنة ارتكاب مجزرة دير ياسين، وذلك على الرغم من أنه لا يستخدم أية وسائط بصرية في هذا النص. فعلى منوال الكتب المدرسية التي كانت سائدةً في العقد الخامس من القرن الماضي، يستهل إنبار الفصل المتعلق بمجزرة دير ياسين 'بالمجازر المرعبة والشنيعة والدموية التي ارتكبها العرب بحق المفكرين والأطباء والممرضين [اليهود] من أجل تجاوز الانطباع السلبي الذي خلّفته واقعة دير ياسين' (Podeh, 2002: 106). ويختتم الكاتب هذا الفصل بالقول بأن '١،٢٠٠ يهودي قتلوا خلال الشهور الأربعة الأولى من الحرب، كان نصفهم مدنيين' (ص. ١٨١)، متجاهلاً في ذلك ذكر الخسائر التي تكبّدها الفلسطينيون. وفي هذا السياق، يتم سرد 'حادثة' أو 'واقعة' دير ياسين، كما تُسمى، على نحوٍ تبدو معه أنها مبرَّرة تمامًا بحسب القواعد الإسرائيلية بشأن الردع والانتقام.[١٣]

أساليب نزع الصفة الشرعية

لا يعني التبرير الإقرار بالفعل والتسليم به. وهو لا يعني 'أن هذا ما كان يمكنني فعله'، وإنما يعني هذا الأمر التفكير المليّ في الفعل من ناحية الأهداف التي يضعها الفاعل، ومعتقداته (حتى لو كانت خاطئة) والظروف التي كان هو على وعيٍ بها. (Dray, 1957: 124).

بينما تنحو جميع الروايات التاريخية إلى تبرير نتيجة المجازر وبسط الأسباب التي أدّت إليها، فإن بعضها ينزع الصفة الشرعية عن أعمال القتل على أسس أخلاقية. ويتحقق نزع الصفة الشرعية عن هذه الأفعال من خلال الفئات التالية بحسب ما جاء في كتاب فان ديجك (Van Dijk, 1997: 259–61):

- نزع الصفة الشرعية عن العضوية – كان القتلة الذين ارتكبوا مجزرة دير ياسين 'منشقّين' (Bar-Navi, 1998).

מחוץ לגבולותיה של ישראל שמטרתן הייתה להעביר את המסר כי אם לא יהיה שקט בצד הישראלי, לא יהיה שקט גם בצד הערבי. פעולה צבאית גדולה נערכה בכפר קִיבְיָה בירדן (אוקטובר 1953). פעולה זו באה בתגובה על רצח אישה ושני ילדיה ביישוב יהוד. בפעולה פוצצו בתים בכפר ונהרגו 69 אזרחים ובהם נשים, זקנים וילדים. האויים גינה את ישראל על הפעולה. נוסף לפעולות הענישה נגד כפרים ערביים, שמהם יצאו מסתננים, ביצעה ישראל גם פעולות יזומות נגד מתקנים צבאיים במדינות ערב.

אולם בעיות הביטחון של המדינה התריפו בהתמדה. חוליות מסתננים חדרו ממדינות ערב לשטחי ישראל וביצעו פעולות טרור קשות שזעזעו את המדינה: **במעלה עקרבים** הותקף אוטובוס בדרכו מאילת לתל אביב, ו-11 מנוסעיו נרצחו (17.3.1954); חוליית מחבלים הגיעה למושב **שפיר** בקרבת רמלה, חדרה לבית הכנסת ופתחה באש על המתפללים (11.4.1956). בחדירת מסתננים לקיבוץ **נחל עוז**, בגבול מצרים, נרצח אתראי הביטחון של הקיבוץ ומעשי התעללות קשים נעשו בגופתו (29.4.1956); תייל ירדני ירה על משתתפים בכינוס ארכיאולוגי **ברמת רחל** והרג 10 בני אדם (26.9.1956).

פעולות אלה גררו פעולות-נגד של צה"ל. ב-10 באוקטובר 1956, בעקבות רצח של שני פועלים יהודים בפרדס בקרבת הגבול, יצא צה"ל להתקפה על **משטרת קלקיליה**. פעולות התגמול אמנם חיזקו במידת מה את תחושת הביטחון בקרב האזרחים, אבל גררו בעקבותיהם גינויים מצד האויים ומצד מדינות המערב.

הרמטכ"ל משה דיין (עומד, רביעי מימין) בחברת לוחמי יחידה 101 והצנחנים. בין הלוחמים: מאיר הר ציון ואריאל שרון (עומדים, ראשון ושני משמאל); רפאל איתן (יושב, ראשון מימין).

הספרות

הסלע האדום

חיים חפר

"הסלע האדום" הוא שיבוש של הכינוי "סלע אדום", המיוחס לאתר הַבָּטְחָה חנמוא בנקרת, שבירדן. בשנות החמישים הייתה סטירה מוקד לתלונותיהם של צעירים ישראלים הרפתקנים, ורבים מהם שילמו בחייהם על המסע הזה. בחשמעם של מסעות מסוכנים אלה נכתב והולחן שיר, "הסלע האדום", שתיאר מסע אחד כזה. כאשר תזרו וְנִשְׁטו מקרי חמות של צעירים שניסו להגיע למקום, נאסר להשמיע את השיר מעל גלי תאתר מחשש שהוא מדרבן צעירים לנסות להגיע אל היעד הנכסף.

סַעֲבִר לַהֲרִים וְלַמִּדְבָּר,
אוֹכְרוֹת הָאֲגָדוֹת, יָשְׁנוּ מָקוֹם,
שֶׁאִישׁ מִמֶּנּוּ חַי עוֹד לֹא חָזַר.
וְהוּא נִקְרָא הַסֶּלַע הָאָדֹם.

הוֹ, הַסֶּלַע הָאָדֹם – הָאָדֹם.

שְׁלֹשָׁה יָצְאוּ לְדַרְכָּךְ עִם שְׁקִיעָה,
מִגֶּזַע לָבָטוּ הָרֵי אָדוֹם,
חֲלוֹם יָשָׁן, מַפָּה וְכִימְיָה,
לָקְחוּ הֵם אֶל הַסֶּלַע הָאָדֹם.

הוֹ, הַסֶּלַע הָאָדֹם – הָאָדֹם.

רִאשׁוֹן הָלַךְ גַּשֶּׁשׁ, מֵרִים פָּנָיו,
מַבִּיט בַּכּוֹכָבִים שְׁבַמָּרוֹם.
אַךְ הַפָּרְאָה אֲשֶׁר רָאוּ עֵינָיו –
הָיְתָה טִרְאָה הַסֶּלַע הָאָדֹם.

הוֹ, הַסֶּלַע הָאָדֹם – הָאָדֹם.

בְּיָדוֹ, אֶת חֲטוּ בֵּין אֲבָנִים,
אֶסֶר אֶחָד, כְּמוֹ מַבָּה חֲלוֹם:
רוֹאֶה אֲנִי – פָּנֶיהָ לְבָנִים.
עֲגוּרֶיהָ: הַסֶּלַע הָאָדֹם.

הוֹ, הַסֶּלַע הָאָדֹם – הָאָדֹם.

גַּלְגַּל הַשֶּׁמֶשׁ עַל רֹאשָׁם הָלַם
וְהֵם נוֹשְׁמִים אֲבָק מִדְבָּר וְחָם
וְלִפְתַע – כְּמוֹ קֶסֶם פָּנֶיהָ דָּהֲמוּ –
רָאוּ הֵם אֶת הַסֶּלַע הָאָדֹם.

הוֹ, הַסֶּלַע הָאָדֹם – הָאָדֹם.

מִטָּה הֵרִיוֹת הָיָה קָצָר.
נָגַח אֶחָד: נִפְצַעְתִּי – וָיָרִים.
עֲגוּ רֶעֶיהָ כְּפָה מָלֵא עָפָר:
הֻנְּצְחוּ אֶל הַסֶּלַע הָאָדֹם.

הוֹ, הַסֶּלַע הָאָדֹם – הָאָדֹם.

الصورة (١): رئيس هيئة الأركان موشيه دايان مع المحاربين من الوحدة (١٠١). ومن بين المحاربين: أريئيل شارون، ورفائيل إيتان ومئير هار- تسيون (Avieli-Tabibian, 2001). بإذنٍ من أرشيف جيش الدفاع الإسرائيلي ومركز التكنولوجيا والتعليم، تل أبيب.

- نزع الصفة الشرعية عن الفعل وعن استقامته ولياقته – قتل الجنود، في قرية كفر قاسم، مزارعين أبرياء لا حول لهم ولا قوة ممن كانوا يتفانون في عملهم، مع أطفالهم دون شفقةٍ أو رحمة. وفي دير ياسين، كان القتلة خلوًا من الصدق والأخلاق، فهم لم يحترموا الاتفاقية التي كانت موقَّعة مع أهالي القرية، وزادوا على ذلك 'بتشدّقهم' بارتكاب المجزرة في هذه القرية (Bar-Navi, 1998).

وعادةً ما تجري **المبالغة** في نزع الصفة الشرعية باستخدام **السلطة الشخصية وغير الشخصية** من أجل الخروج بالادّعاءات والمزاعم اللازمة لهذه الغاية. وقد جاءت أكثر العبارات الصريحة التي تنزع الصفة الشرعية عن القتلة الذين نفّذوا مجزرة دير ياسين على لسان قائدهم. كما أدانت الأمم المتحدة قصف سفينة ألتالينا، وجرَّم قاضٍ القتلة الذين اقترفوا مجزرة كفر قاسم. ويُعزى الحكم السلبي إلى السلطات السياسية والدينية والأخلاقية، كما هي الحال في هذا الحكم: 'لقد هزّت المجزرة أوساط المجتمع اليهودي (Yishuv)[١٤]'. وفضلاً عن ذلك، شجبت منظمة الهاغاناه والوكالة اليهودية والحاخامات هذه المجزرة بشدّة. وعبّر مجلس إدارة الوكالة اليهودية عن شعوره بالاشمئزاز والامتعاض من الطريقة البربرية التي نُفذت فيها هذه العملية' (Bar-Navi, 1998: 184). ويثبت عزو هذا الحكم صحة التقييم وأصالته، غير أنه يُقصي الكاتب في ذات الوقت عن فعل الكلام المرتبط بنزع الصفة الشرعية عن المجزرة ويقلّص من درجة التزامه به.

ويتم الوصول إلى نزع الصفة الشرعية عن الفعل من خلال الأدوات المنطقية التالية:

القياس، الذي كان استخدامه شائعًا بين النازيين: قد يكون القياس صريحًا، ولكن يمكن استنباطه من عناوين من قبيل 'الأمر الذي يظهر انعدام صفته القانونية بصورة جلية' أو من جملةٍ من قبيل 'لقد دفعوا بأنهم اتبعوا الأوامر' – وهذان النصّان يعتمدان على بعضهما البعض في سرد الفعل وحُجّة المدعى عليهم وفق ما جاء على لسان المجرمين النازيين في محاكمات نيرنبرغ.

المقارنة: 'تضطلع المقارنة في الخطاب، في جميع الأحوال تقريبًا، بوظيفةٍ تشرعن الفعل أو تنزع الصفة الشرعية عنه' (Van Leeuwen, 2007: 96). وفي بعض الروايات الواردة بشأن المجازر التي ارتُكبت في قريتيْ دير ياسين وكفر قاسم (أنظر مثلاً Bar-Navi, 1998; Avieli-Tabibian, 2001)، يتميز الضحايا بخصائص الولاء والنزاهة والتماسك والحشمة والصدق، وذلك في مقابل القتلة الذين يفتقرون إلى هذه الصفات. ويبرز التقلب بين الأوصاف التي تُعزى إلى الأفعال الإجرامية والتقييمات الإيجابية التي تُسبغ على الضحايا نزع الصفة الشرعية عن القتلة. ومع ذلك، فنحن نجد في جميع الروايات أن نزع السمة الشرعية عن الفعل أو عن الفاعل يشكّل عبارةً بلاغيةً تأتي على شاكلة شرعنة نتيجة المجزرة ذاتها.

من نزع الصفة الشرعية عن الفعل إلى الشرعنة

تخضع التداعيات الناجمة عن الفعل، حتى لو لم يبرَّر، وفاعله في بعض الأحيان، للتبرير. وفي هذا الإطار، يطرح دومكا وآخرون (Domka et al., 2009: 164) سؤالاً يدفع القارئ إلى تبني موقف متسامح مع القتلة الذين ارتكبوا مجزرة كفر قاسم:

كيف جرى التعبير عن الشعور بالتهديد والتشكك الذي كان سائدًا في إسرائيل تجاه العرب في العقد الخامس من القرن الماضي في الأعمال التي نفذها الجنود في كفر قاسم؟

تستعرض بعض النصوص، التي تسير وفق نموذج نزع الصفة الشرعية عن طريقة القتل، نقطة تحوّل حينما ينتقل النص إلى شرعنة النتيجة. فكما يشير بار- نافي (Bar-Navi, 1998)، يحوّل يلين مور اللوم الذي أُنحِي على جنوده بفعل القتل إلى 'التشدّق' به، وذلك بقوله: 'أنا أعلم أن الكثير من الأمم والجيوش تقْدم على فعل مثل هذه الأشياء، **ولكن من طلب إليهم أن يتشدقوا به؟**'

من الناحية البنيوية، يمكن شرعنة المجزرة عن طريق نوع من **الإيضاح (exposition)**، حيث يرجَح الأثر الإيجابي الذي أتت به هذه المجزرة على آثارها السلبية:

لم تزل مجزرة دير ياسين تشكّل وصمةَ في جبين المجتمع اليهودي الذي خاض النضال في سبيل البقاء والاستقلال. فعلى الساحة السياسية، مثلت المجزرة التهمة المركزية التي وجّهتها الدعاية العربية ضد إسرائيل. ولكن (نقطة تحول) برز أهم آثرٍ من الآثار التي ترتّبت عليها على المدى القصير: فعلى الرغم من أنها لم تتسبب في دبّ الفزع والذعر في نفوس العرب وتدفعهم إلى الهروب من إسرائيل، وهو الهروب الذي كان قد بدأ من قبل، فإنها سرّعت من وتيرة هروبهم إلى حدٍّ بعيد (الشرعنة التي تفضي إلى إفراز الآثار المطلوبة) (Bar-Navi, 1998: 184).

ويختتم هذا الفصل باقتباس عن الرئيس وايزمان الذي سمّى هذه الحادثة معجزةً.

ومن الطرق الأخرى المتّبعة في التحوّل من نزع الصفة الشرعية إلى إضفائها مرةً أخرى توظيف **الاعتراض** (**challenge**) (Coffin، 2006)، وهو نوعٌ فرعي يوظَّف في تفنيد الآراء المعارضة أو تقويض مصداقيتها أو دحضها.

مثال: رواية ألتالينا كما وردت في كتاب بار- نافي (Bar Navi, 1998: 189)

ربما **كان من الممكن** تسوية النزاع دون إراقة الدماء (الاعتراض على الموقف)، ولكن رئيس الحكومة أراد أن يقوم بعملٍ رادع: فهناك حكومة واحدة في إسرائيل، وهي لن تتحمّل المنافسة (تفنيد). لقد **كانت** حادثة ألتالينا عبارة عن تذكرة لإسرائيل للانتقال إلى **نادي الدول المنظمة**، حيث يقع احتكار السلطة المادية في يد **الحكومة الشرعية** (الحجة المقابلة).

خطاب الشرعنة وأنواعه

تشتمل روايات التبرير للأحداث السابقة التي تثير الجدل على جميع مستويات الخطاب التي تؤثر تأثيرًا إيجابيًا على آراء متلقّيها. (اقتباس عن أنتاكي (Antaki, 1994) في كتاب Martin Rojo and Van Dijk, 1997: 549).

ويعرّف فان ليوين الأساليب اللغوية والمنطقية التي يجري نقل المعاني الاجتماعية من خلالها على أنها أساليب تحمل دلالةً اجتماعية، وذلك لأنه على الرغم من أن هذه الوسائل تشكّل جزءًا من نظام لغوي، 'فإن المعاني تعتبر ثقافية، وليست لغوية' (٢٠٠٨: ٢٤). وفيما يتصل بالشرعنة، يصرّح فان ليوين 'بأنه يتوجب علينا، على وجه الخصوص، أن ندرس [. . .] العلاقات المتداخلة الدقيقة بين الممارسات الاجتماعية والخطاب الذي يشرعنها' (٢٠٠٧: ١١١).

وتتحقّق الشرعنة من خلال أفعال الكلام المختلفة، من قبيل التأكيدات والأسئلة، ومختلف أنواع الخطاب المتداخل والمتناقض في بعض الأحيان، والأنواع (genres) المختلفة، والتي تعمل بمجموعها على تحويل الحقيقة إلى نسخة عن الحقيقة (Van Leeuwen, 2007: 110). وتوظِّف كتب التاريخ والجغرافيا التي تدرَّس في مدارس إسرائيل خليطًا من الخطاب العلمي والصهيوني والتوراتي من أجل شرعنة الهيمنة على أرض إسرائيل/ فلسطين (Peled-Elhanan, 2009b). ويتعزّز هذا الخطاب في معظم الحالات من خلال الأغاني والقصائد الشعرية التي تمجّد الجنود وتشيد بالمشروع الصهيوني.

كما يتحقق تحوير الحقيقة في الروايات التي ندرسها في هذه المقالة من خلال الأساليب المنطقية التالية:

إقصاء العناصر

لا يمكن أن يتضمن أي تمثيلٍ للممارسة الاجتماعية جميع ما يجب تمثيله، بل يشكّل انتقاء الحقائق أحد القيود المفروضة على كل رواية، ولا سيما الروايات 'التي تصطبغ بصبغة أيديولوجية'. ويشير ليوتار (Lyotard, 1992: 90)، في سياق حديثه عن الروايات العظيمة في التحرر (كالصهيونية مثلاً)، إلى أن '[. . .] العديد من الأحداث ينتهي بها المطاف إلى مزبلة التاريخ أو الروح. ولا يجري استرجاع أي حدثٍ منها إلا إذا كان يمثّل وجهة نظر السيد'. وفي هذا الإطار، تحذف الروايات الواردة بشأن المجازر الأسباب التي وقفت وراء فعل القتل، وتستبعد التداعيات المباشرة وطويلة الأمد التي خلّفتها على الضحايا وأي دليل لفظي أو بصري يثبت المعاناة التي تكبّدوها، بالإضافة إلى التفاصيل التي يمكن أن تثير أسئلةً لا داعي لها حول مدى مشروعية الأعمال التي تنفذها إسرائيل وأهدافها. وفيما يلي رواية نستشهد بها من كتاب أفييلي- تابيبيان (Avieli-Tabibian, 2001: 335) حول مجزرة كفر قاسم:

الأمر الذي يظهر انعدام صفته القانونية بصورة جلية

في اليوم الذي بدأت فيه حملة سيناء [العدوان الثلاثي على مصر- المحرّر]، تم تقديم موعد حظر التجول بساعة، حيث فُرض في الساعة ٥:٠٠ مساءً. وفي ذلك اليوم، عاد العمال من أبناء قرية كفر قاسم إلى منازلهم بعد فرض منع التجول دون علمهم بتغيير موعده. وقد أمر جنود حرس الحدود، الذين قابلوا هؤلاء العمال على مدخل القرية، بالتوقّف، وتأكّدوا من أنهم من سكان القرية، وأطلقوا النار عليهم وقتلوهم. ودفع الجنود بأنه كان يتعين عليهم تنفيذ الأوامر، التي كانت تملي عليهم إطلاق النار دون تمييز وقتل أي شخص يتواجد خارج منزله بعد فرض نظام منع التجول. وقد قُتل ٤٩ مواطنًا، بمن فيهم نساءٌ وأطفالٌ، من سكان القرية. وشجب رئيس الحكومة مقتلهم، ووقف أعضاء الكنيست دقيقة صمتٍ كاملةٍ حدادًا على أرواحهم [. . .]. وحُكم على المدعى عليهم بالسجن لمدد تتراوح من سبع سنوات إلى سبع عشرة سنة. وقرّر القاضي بأن الأمر الذي

يظهر انعدام صفته القانونية بصورةٍ جليةٍ يجب أن يكون واضحًا لكل إنسان يتمتع بصفة الإنسان. فهذا اختبار أخلاقي. 'إن لم تكن العين عمياء والقلب خِلوٌ من الفساد'.

إن هذه الرواية تشرعن، من خلال نزع الصفة الشرعية عن القتلة، عمل الحكومة والكنيست، حيث تَعرِض القتلة على أنهم جانحون هامشيّون تصرّفوا من تلقاء أنفسهم وبمعزل عن الجهة التي أرسلتهم في مهمتهم. وتتحقق الشرعنة من خلال استعراض الظروف التي واكبت ارتكاب المجزرة، وحذف الأسباب التي وقفت وراءها في ذات الوقت، بحيث لا يبدو أن خطةً أُعِدَّت سلفًا لاقترافها. وتعرض هذه الرواية الأوامر التي صدرت للجنود باعتبارها تشكّل حجة القتلة، وليس باعتبارها حقيقة واقعة. كما تحذف الرواية التفاصيل التي تبيّن إنكار الحادثة من جانب الحكومة وإطلاق سراح القتلة في وقتٍ مبكرٍ، ناهيك عن تصرّف رئيس الحكومة الذين كان يصبّ في صالحهم. ونحن نستطيع، إذا ما توفرت لنا هذه الحقائق المُغَيَّبة، أن نخرج بالشرح الغائيّ التالي:

- أرادت إسرائيل أن تُخفي حقيقة أنها كانت تنوي مهاجمة مصر وتشجيع العمل على تسفير المواطنين الفلسطينيين المقيمين فيها طوعًا إلى الأردن.
- كما رأت إسرائيل أن مهاجمة القرى الفلسطينية وقتل عددٍ من سكانها قد يحوّل الانتباه بعيدًا عن الحرب الحقيقية و'يشجع' من يتبقّى من المواطنين الفلسطينيين على الفرار إلى الأردن.
- ولذلك، فقد تمّ تغيير موعد فرض حظر التجول دون إخطار سكان قرية كفر قاسم، وأمر الجيش أفراد حرس الحدود بقتل أي مواطنٍ يتواجد خارج منزله بعد الساعة ٠٠ : ٥ مساءً.[١٥]

ولم تجد هذه الرواية التي تَرِد في كتب التاريخ العادية، ككتاب روزنتال (Rosental, 2000)، طريقها بعدُ إلى الكتب المدرسية الرسمية، لأنها قد تزعزع سلطة المحكمة والحكومة وتضرّ بسمعة جيش الدفاع الإسرائيلي بصورته جيشًا يتحلّى بالأخلاق، وهي الصورة التي يحرص نظام التعليم الإسرائيلي على إذاعتها ونشرها.

إضافة العناصر

يشتمل هذا الفعل على إضافة الأفكار أو النوايا أو الأوضاع التي تشرعن أو تبرّئ القتلة على الأقل. فعلى سبيل المثال، 'تعطّل مكبر الصوت الذي كان المتحدث عبره يحثّ سكان قرية دير ياسين على مغادرة قريتهم [. . .] ولم يغادر السكان القرية، وهذا هو السبب الذي يقف وراء ارتفاع عدد الضحايا في صفوفهم بدرجةٍ كبيرة' (Nave et al., 2009: 113). و'لم يكن الجنود على علم بأن المواطنين كانوا مختبئين في منازلهم' (الرواية التي يوردها إنبار في كتابه حول مجزرة قبية (Inbar, 2004: 244)). وعلاوةً على ذلك، يستعرض دومكا وآخرون هذه الحجة (Domka et al., 2009: 162) بتصرّف أكبر من غيرهم: 'يقول الادعاء الإسرائيلي بأن الجنود لم يكونوا على علم بأن المواطنين كانوا مختبئين في منازلهم واعتقدوا بأنهم كان يقصفون تلك المنازل وهي خاليةٌ من سكانها'.

تغيير المعلومات

على الرغم من أن كتاب (1999) (*Modern Times II*) وكتاب (2009) (*Building a State*) ألّفهما نفس الكاتب (نافي)، يصف الكتاب الأول منهما قرية دير ياسين على أنها 'قرية مسالمة أبرم سكانها معاهدة عدم اعتداء مع ميليشيا الهاغاناه والتزموا بها بحذافيرها'، في حين يصف الكتاب الآخر القرية باعتبارها 'إحدى القواعد التي اتّخذتها القوات العربية لمهاجمة طريق القدس'. ويساهم تغيير المعلومات على هذا النحو في شرعنة المجزرة ويشير إلى نشوء اتجاهٍ جديدٍ في نظام التعليم الإسرائيلي، وهو ما يظهر بجلاءٍ في كتاب إنبار (Inbar, 2004) وكتاب بلانك (Blank, 2006) كذلك، بحيث تقدَّم هذه المجزرة على أنها معركةٌ مبررة خرجت عن نطاق السيطرة بسبب 'سلسلةٍ من الحوادث المؤسفة' [التي] 'حوّلتها [المعركة] إلى قتل العرب الأبرياء بصورة جماعية' (Nave et al., 2009: 112–13).

التجريد والتعميم

تنسحب هاتان الأداتان على الأسئلة التي ترد في خواتيم بعض الروايات. ففي كتاب أفيلي تابيبيان (Avieli-Tabibian, 2001)، يرد السؤال 'ما هي الإنجازات التي حقّقتها عملية نحشون (Nahshon operation)' مباشرةً بعد رواية مجزرة دير ياسين، وهي بذلك إما تتجاهل إدراجها ضمن الإنجازات التي تمخّضت عن عملية التطهير العرقي الكبيرة التي شنت تحت غطاء رسمي أو تُضمِّنها في تلك الإنجازات. وبعد سرد أحداث المجزرة التي ارتكبها الجنود في قبية، يتساءل بار- نافي ونافي (Bar-Navi and Nave, 1999):

١. ما هو التعبير عن العداوة العربية تجاه إسرائيل؟
٢. هل تعتقد بأن ردّ إسرائيل على هذه الأعمال العدائية كان ناجعًا ومبررًا؟ أذكر الأسباب.

تعبّر هذه الأسئلة عن الرسالة التعليمية التي تؤديها الروايات التاريخية– أنظر إلى ما وراء الحادثة الفردية (المؤسفة) التي قُتل فيها المواطنون وأمعن النظر في الصورة الكبيرة والنتيجة (الإيجابية) طويلة الأمد التي خرجت بها. وبذلك، يتّجه القارئ إلى تثمين الإنجازات العسكرية والاجتماعية التي حققتها المجزرة ويستذكر المزايا، وليس 'الأحداث المؤسفة' التي تمخّضت عنها.

الشكلية (Modality)

لا يتمحور السؤال في تحليل النص حول مدى مصداقية بعض المعلومات، وإنما حول مدى مصداقية تمثيلها والمصداقية التي يريد صانع العلامة لتلك المعلومات أن تظهر بها (Van Leeuwen, 2005). تضطلع الشكلية بدورٍ هامٍّ في هذا التمثيل (كما يقول ذلك فان ليوين في كتابه (Van Leeuwen, 2005: 160). ويشرح هذا الكاتب هذا الأمر بقوله إن النصوص الرسمية تستطيع توظيف مصادر الشكلية في اللغة من أجل فرض وجهة نظر للحقيقة التي يصعب مجابهتها، لأن 'من يتحكّم بالشكل يتحكم بالرواية التي سيتم انتقاؤها'. فمن خلال هذه الشكلية، يستطيع المؤلفون زيادة درجة قوة تأكيداتهم أو خفضها (Martin and White, 2005: 13–14). ويشير هودج وكريس (Hodge and Kress, 1993: 162) إلى أن 'المصادر اللغوية للشكلية [. . .] تتيح للناس التقليل من شأن الحقائق التي يُدلي بها الآخرون'، وذلك من قبيل 'يقول البعض بأن العرب طُردوا من ديارهم، ويقول آخرون بأنهم هربوا منها. ولا يعبر هذان التفسيران سوى عن خرافات.' (Bar-Navi, 1998: 195). ويعرّف فيركلاو (Fairclough, 2003: 219) الشكلية على أنها عبارة عن 'العلاقة التي تقيمها الجملة أو العبارة بين الكاتب وصور التمثيل'. ويميز فيركلاو بين نوعين من أنواع الشكلية: الشكلية الإرادية أو شكلية الضرورة والواجب، وهي ما يلزِم المؤلّف نفسه به، والشكلية المعرفية أو شكلية الاحتمالات. وبينما تحتلّ الشكلية الإرادية مرتبةً عاليةً، فقد تأتي شكلية الاحتمالات في منازلَ متقدمةٍ أو متوسطةٍ أو متدنيةٍ (Martin and White, 2005: 13–14).

توظِّف الاستراتيجيات المختلفة المتّبعة في الشرعنة تعبيراتٍ متباينةً من الشكلية (Van Leeuwen, 2007: 94). فكما رأينا، تشتمل **الشرعنة المتأتية من السلطة الشخصية** على صورٍ من الشكلية التي تستتبع قدرًا كبيرً من الواجب ('أنا أعلم'). وفي المقابل، قد تنطوي الشرعنة القائمة على أساس سلطة الانسجام على صيغ شكليةٍ ضمنيةٍ أو صريحةٍ تتردّد بصورةٍ متكررة، من قبيل 'عادةً'، و'كلّ' (أو 'الكثير من الجيوش تقْدم على فعل ذلك'). ومن الأمثلة التي نستطيع أن نسترشد بها في هذا المقام السؤال التالي 'الذي يحفّز المرء على التفكير' بشأن مجزرة دير ياسين (Bar-Navi and Nave, 1999: 228):

ما هي، برأيك، التداعيات السياسية والأخلاقية التي يمكن أن تكون قد تمخّضت عن حادثة دير ياسين؟

ففي هذا السؤال، 'تساعد المصادر الشكلية على إدراج إمكانية التفاوض الصريح ضمن الافتراض، وهي بالتالي وعلى خلاف التوكيد الإيجابي، لا تفترض ولا تحاكي التقارب بين المؤلف والقارئ' (Coffin, 2006: 145). ويلاحظ هودج وكريس (Hodge and Kress, 1993: 138)) أن 'جميع الأفعال الشكلية المساعدة تحتوي على عنصر النفي في ذاتها، وهو ما يمثل المفتاح الذي يمكّننا من سبر معناها [. . .]. وقد تكون الصورة الشكلية المسبقة نابعةً في مصدرها من المتحدث نفسه، أو قد تأتي من الخارج، بحيث يعتبرها المتحدث بمثابة 'معنىً غريبًا'. ويتم نفي الافتراض الذي يتضمنه السؤال المطروح أعلاه، أو 'معناه المشكَّل مسبقًا' – وهو أنه ينبغي أن تتمخض المجازر عن تبعات أخلاقية وسياسية. ويوحي هذا السؤال بأن المجزرة قد لا تنطوي بالضرورة على تداعيات أخلاقية أو سياسية وأن هذه التداعيات متداخلة مع بعضها البعض وقابلة للتفاوض.

ويلاحظ فيركلاو (Fairclough, 2003: 219) في ذات هذا السياق بأنه يمكن النظر إلى الجمل المقترنة بأفعال شكلية مساعدة (يمكن) على أنها تتوسّط التأكيد الحاسم والنفي وأنها تسجّل درجاتٍ متفاوتةٍ من الالتزام بالحقيقة. ففي هذا السؤال، يقرّب الفعل المساعد (يمكن) الافتراض الذي يتضمنه السؤال إلى مرتبة النفي، بحيث يوحي بأن هذه المجزرة [التي أعيدت تسميتها بحادثة] قد تخطّت التداعيات السياسية والأخلاقية.

وتميّز الشكلية بين الشرعنة ونزع الصفة الشرعية. فحينما يجرَّم القتلة أو تبرَّر الأفعال التي صدرت عنهم، فإنه يتم تمثيل أفعالهم من خلال درجةٍ متقدمةٍ من الشكلية الإدارية وبالتأكيدات التي ترد في صيغة المبني للمعلوم. ولكن عندما تُخفَّف المسؤولية التي يتحمّلها هؤلاء القتلة، تستخدم الروايات التاريخية درجةً أدنى من الشكلية أو شكلية الاحتمالات وصيغة المبني للمجهول:

هاجمت الوحدة (١٠١)، التي تتألف من جنود ومظليين، قرية قبية التي كانت معروفةً على أنها تشكّل نقطة انطلاق للإرهابيين، **وهدمت** ٤٥ منزلاً. ولم تكن الوحدة على علم بأن المواطنين كانوا مختبئين في منازلهم. وقد قُتل ٧٠ رجلاً وامرأةً وطفلاً. (Inbar, 2004: 244).

وتخلق صيغة المبني للمجهول مع حذف الفاعل الانطباع بوجود الموضوعية (Hodge and Kress, 1993: 134)، ولكن التحوّل من صيغة المبني للمعلوم إلى صيغة المبني للمجهول يعكس الموقف الذي يتبنّاه المؤلف، حيث يقول بأن الجنود لا يتحملون كامل المسؤولية عن موت هؤلاء المواطنين لأنهم لم يكونوا على علم بوجودهم في المنازل التي هدموها في تلك الليلة. وعلى الرغم من استبعاد الفاعل، إلا أن المرء يستطيع افتراضه لأن 'استبعاده يترك أثرًا' (Van Leeuwen, 1996: 39)، يقيم في مرحلة لاحقة على أنه ظاهرة مستقلة.

وفضلاً عما تقدم، يمكن **كبح الفاعل الاجتماعي** أو **إخفاؤه** من خلال **الاستعارات النحوية**، التي تحوّل الأحداث والعمليات إلى مشاركين مستقلين، من قبيل 'قتل المواطنون في سياق قصف على المنازل' (Inbar, 2004)، أو 'تسبّب الهجوم في دبّ الفزع والذعر في نفوس المواطنين ودفعهم إلى الهروب' (Avieli-Tabibian, 2001)، أو 'أضحت الحدود مع الأردن، التي جرى ترسيمها بطريقةٍ عشوائيةٍ وفصلت سكان القرى العرب عن أراضيهم، خطّ النار الحقيقي' (Bar-Navi and Nave, 1999: 273).

وتُظهر جميع الروايات التاريخية الإسرائيلية قدرًا ضئيلاً جدًا من الالتزام بالحقائق المرتبطة بالضحايا الفلسطينيين أو الروايات الفلسطينية. وقد يختلف عدد الضحايا الفلسطينيين من روايةٍ إلى أخرى، بل وفي ثنايا الرواية الواحدة نفسها. وفي هذا الإطار، تُعرض الروايات الفلسطينية على أنها احتماليةٌ قائمةٌ في 'نظرهم'، أو في 'قطاعهم' أو في 'وعيهم' فقط. ومن الأمثلة على ذلك، 'باتت مجزرة كفر قاسم التي وقعت **في الوسط العربي** تمثل رمز الشرور التي يخلّفها الاضطهاد' (Bar-Navi, 1998: 121) أو 'زُعم أن العديد من الناس لم يقتلوا [في دير ياسين] في أثناء المعركة وأن اليهود ارتكبوا مجزرةً ضد سكان القرية' (Domka et al., 2009: 87)، أو 'أمست دير ياسين **تمثل خرافةً في الرواية الفلسطينية** [. . .] وخلقت صورةً سلبيةً مرعبةً للغازي اليهودي **في نظر** عرب إسرائيل' (Nave et al., 2009: 112–13). وفي جميع هذه الأمثلة، تقدَّم الأفعال والآثار التي تمخضت عنها بمثابة حجةٍ يدفع بها الضحايا، وليس بمثابة حقيقةٍ قائمة.

أنواع الشرعنة

من وجهة نظرٍ سيميائيةٍ اجتماعية، يتمثل السؤال الذي يطرحه المؤلفون في 'ما الذي نريد أن نعنيه، وما هي الصيغ والأنواع الفضلى لتحقيق هذا المعنى؟' (Kress, 2003: 88). فبذلك، يتعين على المرء في علمه على تحليل النصّ أن لا ينظر إلى ما يجري فعله مع الكلمات أو الصور فحسب، وإنما إلى من يفعل ذلك، وأين ومتى، وما الذي يفعله الناس ببعضهم البعض عن طريق النص (Van Leeuwen, 2005).

ترى كوفين بأن 'النظر إلى الخطاب التاريخي – في الكتب التي تدرَّس في المدارس الثانوية – يقوّض مرجعية أنماطٍ مختلفةٍ من النص أو «الأنواع» (genres)، حيث يساعدنا كلّ واحدٍ منها على تبنّي طرقٍ مختلفةٍ في التفكير حول الماضي (Coffin, 2006: 10). كما تقول كوفين بأن 'الممارسة المنطقية التي تتمحور حول التاريخ هي تفسيرٌ وتشكيلٌ للتجربة الاجتماعية باستخدام الأشكال النصية والمصادر اللغوية للسرد أو الشرح أو الجدل كوسيلةٍ لإقناع القارئ أو وضعه في موضعٍ يقبل فيه التفسير على أنه حادثةٌ واقعةٌ أو «حقيقة»' (٢٠٠٦: ٤٤).

وتعتبر أنواع السرد أو التدوين، وإعادة تفسير الأحداث وتفسيرها، أفضل الأدوات التي تتناسب مع تأويل القصص البسيطة التي تُفضي بالقارئ إلى التسليم بوجهة نظرٍ وحيدة. ويندرج الحكم في هذه الأنواع، في معظم الحالات، ضمن البنية وضمن النحو والمفردات (Coffin, 2006: 139). لذلك، تعتبر هذه الأنواع ملائمةً للشرعنة أكثر من الأنواع الشائعة من الحجج التي تخضع للنقاش في جانبٍ كبيرٍ منها، وحيث يتم 'الكشف عن' الحكم وتعريته فيها. وبحسب ما يشير إليه هابرماس (Habermas, 1975: 71)، 'يعتبر استحضار الشرعنة من قبيل هزيمة الذات حالما يتم الكشف عن طريقة ذلك الاستحضار'.

ويبدو أن إعادة التفسير (recount)، مع ما تقترن به من صوت المدوِّن والأسلوب الذي لا يبدو أنه يقحِم نفسه فيه (Coffin, 2006)، يشبه تدوين الأحداث أكثر من أي شيءٍ آخر، وذلك على الرغم من أن 'المدوّن لا يملك المعرفة بالمستقبل، ويعرفها المؤرخ في المقابل'، وهو ما يمكّنه من وصف الأحداث السابقة في ضوء الأحداث التي تتلوها (Ricoeur, 1983: 144). وبحسب ما تحذّر منه كوفين، 'يشير وصف صوت المدون إلى انخفاض مستوى تدخّل السلطة، وليس إلى كونه مؤشرًا إلى الموضوعية ضمن أي معنىً مطلق. وقد ينتج عن هذا الأسلوب نصٌّ يعرض «شعورًا» واقعيًا وحياديًا [. . .] من خلال غياب أشكال التقييم المباشرة والصريحة وإقصاء التفسيرات المتنافسة والمتداخلة'. إن صوت المدون 'يفترض أو يحاكي توافق القارئ مع وجهة النظر التي يتبنّاها الكاتب حول العالم، مما يؤدي إلى تقليص حجم العمل الشخصي الصريح الذي يتعين إنجازه، من ناحية إخضاع المواقف المتباينة التي يتبناها القارئ للتفاوض' (Coffin, 2006: 151–2).

ونستعرض فيما يلي مثالاً حول إعادة التفسير (Inbar, 2004: 180)، ونحن نضيف العناوين الفرعية إليه:

- **تدوين الأحداث**: في ليلة التاسع من نيسان، هوجِمت قرية دير ياسين، وهي قرية تقع إلى الغرب من مدينة القدس، من قبل قوةٍ مشتركةٍ من منظمتيْ إتسل وليحي.
- **الأساس**: وكان الهدف يكمن في الاستيلاء على القرية وطرد سكانها منها.
- **استكمال تدوين الأحداث**: وخلال مجريات المعركة التي اندلعت على الأرض، قُتل ما بين ١٠٠ إلى ٢٥٠ شخصًا، بمن فيهم نساءٌ وأطفال.
- **التداعيات**: أثارت الحادثة جدلاً عامًا حول قواعد الحرب وطرق التعامل مع السكان الأصليين.

يقول مارتين روجو وفان ديجك (Martin Rojo and Van Dijk, 1997: 532) بأن الشرعنة الاجتماعية تفترض في أصلها وجود اتهامات أو شكوك حول ما إذا كان ذلك الفعل قد أخلّ بالقواعد الاجتماعية أو الثقافية أو القيم أو النظام الأخلاقي نفسه. وتجيب هذه الرواية عن تلك الشكوك عن طريق إدراج **هدفٍ شرعيٍّ** (هو طرد السكان العرب) في الموضع الذي قد تثور فيه مثل هذه الشكوك، وذلك مباشرةً عقب ذكر الهجوم الذي يبدو أنه لم يُشَنّ لأي سبب ظاهر. ويعتبر الإسهاب في ذكر 'الطرد' وتبريره على نحوٍ صريح 'مبالغةٌ في التواصل' (Van Leeuwen, 1996: 41)، لأن شرعنته سبق أن توطّدت في إسرائيل وغُرست في أذهان جميع الطلبة اليهود. وتمثل إعادة تسمية المجزرة 'بمعركة' أو 'حادثة' فعلاً من أفعال الحكم، مع أنها لا تعتبر صريحةً بالنسبة لإعادة تفسيرها. فهذه الرواية تحذف التداعيات التي تركت آثارها على الضحايا وعلى عائلاتهم، وهي لا تذكر سوى الجدل الأخلاقي الذي 'أثارته' في إسرائيل، مما يفضي إلى شرعنة سلوك الجمهور الإسرائيلي في ذات الوقت الذي تذيع فيه أن بعض الناس اعتقدوا أن ذلك كان يمثل الطريقة الصحيحة 'للتعامل مع السكان الأصليين'.

وفي تفسير (account) الرواية، 'قد تأخذ الأحداث دور الفاعل وتنتج أو تسبّب أحداثًا متلاحقة، ولا يؤدي هذا الدورَ حدثٌ واحدٌ لا يزيد على أن يتبع حدثًا آخر' (Coffin, 2006: 58). فعلى سبيل المثال، 'صدمت المجزرة العرب وسرّعت من وتيرة هروبهم الذي سبّبه الذعر والفزع' (Avieli-Tabibian, 2001).

ويحمل **تفسير** الرواية **صوت المقيِّم** (Coffin, 2006: 56)، الذي يقرّبها من السرد التاريخي الذي يقدر على إفراز 'الأثر الإيضاحي' (White, 1973: 30). ولا يقتصر الهدف الاجتماعي الذي يسعى السرد إلى تحقيقه على تدوين الأحداث، وإنما يشرح كذلك تسلسلاً معينًا وقعت فيه تلك الأحداث.

ومن ناحية **نسق** النص، يمثل الزمن المبدأ الرئيس الذي ينظّم تفسير الإحداث وإعادة تفسيرها في آنٍ واحدٍ معًا. ولكن، يتحول السبب، في تفسير الأحداث، إلى أداةٍ تنظم النص إلى جانب الزمن، وقد تتولى حروف العطف الزمنية تأدية وظيفة العلاقة السببية. وفيما يتصل بهذه العلاقة السببية، يشير كريس (Kress, 2003: 1) إلى أن 'الحقيقة البسيطة والقوية في ذات الوقت تتمثل في أن التسلسل الزمني والآثار التي يفرزها توجّهنا إلى عالم من العلاقة السببية [. . .] والسرد هو النوع الذي يشكّل أكثر التعبيرات الشكلية القوية عن ذلك'. ويكثُر التفسير استخدام الأسماء والاستعارات النحوية التي تضفي المزيد من التماسك على النص وتمنحه القدرة على تفسير فرضية تغطّي فتراتٍ طويلةٍ من الزمن. وفضلاً عن ذلك، يحوّل التفسير النص إلى نص فني، وبالتالي فهو يصبح نصًا 'علميًا' وموضوعياً أكثر من غيره، بحيث يخلو من الواسطة البشرية. فعلى سبيل المثال:

> كانت غالبية الهجمات تستهدف الأعيان المدنية، واشتملت على عمليات مراقبة واجتياحات نُفذت في عمق الأراضي الواقعة خلف الحدود. (Inbar, 2004: 244)

وتتضمن الروايات شروحات، تمثل 'الجسر اللغوي بين السرد والحجة (argument). وتُستخدم هذه الشروحات من أجل تبرير التفسير الذي يسوقه المدافعون عن النص' (Coffin, 1997: 202–3). فبحسب ما يفترض دراي (Dray, 1957: 124)، 'يوظف المؤرخون [. . .] تفاصيل من أجل تبرير فرضياتهم [. . .] ويبحثون في المبررات، ويوازنون بين المسبّبات ويقيّمونها، ويختبرون الأدوات المرشحة لتولّي دور الأسباب، وهذه بمجموعها عبارة عن أفعال من فعل الحكم'.

وبما أن الشرعنة تتيح الارتجاع إلى الماضي، دون التنبؤ، فإنها تعود ثانيةً إلى **الشرح المترابط من ناحية منطقية** الذي يفسّر التداعيات باعتبارها مسبّبات. ومع أخذ الآثار الناجمة عن المجزرة في الاعتبار، يستنتج النص، من خلال الرجوع في الزمن، **الظروف** السابقة الضرورية التي كان يجب أن تُعين على ارتكابها أو تيسيره أو السماح به. وتجيب هذه 'الظروف المحدِّدة' (Coffin, 2006: 122)، 'التي يتم التعبير عن علاقتها بالحدث عن طريق حروف العطف والأفعال

وحروف الجر التي تحمل معنى التتابع، والتي تربطها مع نتيجة'، عن السؤال 'لماذا؟' الذي يرد حول الشرعنة.

ويستطيع الشرح المترابط منطقيًا أن 'يدمج الأسباب البنيوية الطويلة الأمد مع الأحداث المتسارعة القصيرة الأمد [. . .] ويعيد تشكيلها باعتبارها نظامًا من الأسباب التي تفرز أثرًا معينًا، مما يؤدي إلى إعداد بنيةٍ منطقيةٍ في الوقت الذي لم تكن توجد فيه مثل هذه البنية، وذلك في عملية يمكن فيها إضفاء الانسجام على الأشكال غير المنسجمة باستخدام عبارات من قبيل 'أدى إلى'، أو 'نتج عن' أو 'حوّل كذا إلى كذا' (Coffin, 2006: 70–2). فعلى سبيل المثال، يقول بار- نافي (Bar-Nave, 1998: 210):

> كانت حرب العام ١٩٥٦ تشكل نقطة تحوّلٍ جيدةٍ بالنسبة لعرب إسرائيل. فعلى الرغم من أنها استُهلَّت بمأساة كفر قاسم، فقد حولت الانتصار الساحق وحالة السلام النسبي على الحدود والثقة بالذات التي تمتع بها السكان اليهود، على المدى الطويل، الحكومة العسكرية إلى عبءٍ أخلاقيٍّ وسياسيٍّ لا يُحتمل، حيث تم إقصاؤها بعد عشر سنوات من ذلك.

يدرج هذا الشرح المتساوق منطقيًا الزائف المجزرة (التي أعاد الكاتب تسميتها بالمأساة) ضمن قصةٍ ذات نهايةٍ سعيدةٍ عن طريق جعلها تشكل نقطة البداية في عملية إيجابية. فقد حُشِرت التداعيات التي ترتبت على حربين مختلفتين، تفصل بينهما تسع سنوات ولا ترتبط إحداها (وهي حرب العام ١٩٦٧) بأية صلة مع مجزرة كفر قاسم، في تسلسلٍ سببيٍ واحد أعاد الكاتب تفسيره من خلال سلسلةٍ من العمليات - التي حُوِّلت إلى 'أشياء' - بحيث أفرزت تغييرًا إيجابيًا بالنسبة للضحايا. وعلى الرغم من الرابط بين المسبّبات المختلفة والتغيير الإيجابي هو حرف العطف 'و'، فإن هذا الرابط يحمل 'أثرًا براغماتيًا يفيد الاستمرارية' (Chiffrin, 1988: 130)، ويبدو أنه يؤدي عمل عبارات من قبيل 'لهذا السبب' أو 'نتيجةً لذلك' أو 'لذلك'.

ويوظِّف التفسير **التقييم** (appraisal) الذي يشرعن الفعل وينزع الصفة الشرعية عنه، والذي قد يكون صريحًا أو ضمنيًا في ذات الوقت، كما هي الحال في الاستدلال التالي الذي ورد في سياق حادثة ألتالينا (Bar-Navi, 1998: 189)، وقد أبرزنا بعض العبارات الدالّة فيه بالخط العريض:

> أمام أعين مراقبي الأمم المتحدة الذين **لم يصدقوا ما كانوا يشاهدونه**، قصف الجيش الإسرائيلي سفينةً كانت تحمل الأسلحة **التي كانت تحتاجها إسرائيل كما تحتاج الهواء**، وقتل متطوعين يهودًا ممن جاؤوا لمساعدة إسرائيل على صد **الهجمات المتواصلة التي يشنها العرب**.

الحُجة (Argument)

يتمحور الجدال التاريخي في جانب كبير منه حول الخروج بتفسير معين للأحداث السالفة، وتدعيمه بالأدلة. (Coffin, 2006: 66)

على الرغم من أن الحجة، باعتبارها نوعًا (genre)، يندر ورودها في الروايات التاريخية، فإن الحجج التي تسوقها هذه الروايات لشرعنة المجزرة متوافرة - بصرف النظر عن درجة صراحتها - باعتبارها 'أقصى نقطة تريد الوصول إليها'، وهو عبارة عن 'ما تضيفه أو حتى عبارة عن الفرضية التي تحملها في سرد' تلك الروايات (White, 1973: 11). وتتمثل المكوّنات المنطقية الرئيسة التي تشكّل أية حجة (Fairclough, 2003: 81) في الأساس، والمبرر، والمساعدات الاختيارية والادعاء. 'وهذه الأجزاء ضمنيةٌ في معظمها، وهي تعتبر من المسلّمات أو يمكن افتراضها' (Fairclough, 2003: 81). ويفترض فيركلاو بأنه 'عندما يكون الأمر كذلك، فإن المرء يستطيع أن يدرس العمل الأيديولوجي الذي يؤديه النص' (٢٠٠٣ : ٨٢).

يشكل الأساس المقدمة المنطقية للحجة، وقد يكون عبارة عن أساسٍ تاريخيٍّ أو أساسٍ أخلاقيٍّ أو كليهما معًا. فعلى سبيل المثال، يتمثل الأساس بالنسبة لمجزرة دير ياسين في كتاب أفييلي تابيبيان (Avieli-Tabibian,1999) في: 'وقع حدثٌ جسيمٌ سوف تكون له أهميته على مدى الأيام المقبلة في خضمّ عملية نحشون'. ويضع هذا الأساس المجزرة من الناحية التاريخية ضمن سياق عملية التطهير العرقي الرسمية ويشكّل الأساس الأخلاقي اللازم لشرعنتها عن طريق **التطبيع** (فمن الشائع أن الأحداث الجسيمة تقع خلال مجريات المعركة). وفضلاً عن ذلك، يصرّح هذا الأساس بدرجةٍ أكبر من الصراحة بأن أهمية المجزرة تكمن في ما يمكن أن تتمخّض عنه في المستقبل، بمعنى أنه يتوجب الحكم عليها من ناحية **الأثر والمنفعة**.

- تسوِّغ **المبررات** الاستنتاج من الأساس حتى الادعاء. فعلى سبيل المثال، يشير بار- نافي (Bar-Navi, 1998) في روايته حول حادثة ألتالينا إلى أن '[. . .] رئيس الحكومة أراد أن يقوم بعمل رادع: فهناك حكومة واحدة في إسرائيل، وهي لن تتحمل المنافسة'.
- **المساعِدات**: المساندات الاختيارية أو التأييد الذي يعزّز

المبررات، من قبيل 'كانت حادثة ألتالينا عبارة عن تذكرة لإسرائيل للانتقال إلى نادي الدول المنظمة'.

- **الادعـاء**: الفرضية التي تعرضها الحجة. ففي الروايات التاريخية التي نتناولها في هذه المقالة، يمكن استنباط الادعاء المشرعن من عناوين من قبيل 'الأمر الذي يظهر انعدام صفته القانونية بصورة جلية' و'إسرائيل ترد على الإرهاب'، أو قد يظهر ذلك في الاستدلال. فعلى سبيل المثال، 'لقد تسبب هذا التكتيك الصارخ في عزل إسرائيل على الساحة الدولية وشتّت الإجماع الوطني داخل إسرائيل، ولكنه كان يبدو أنه ذا قيمة [. . .]' (Bar-Navi, 1998: 250).

وعلى الرغم من أن الأيديولوجية التي تنشئ الحجج التاريخية وتضفي القيمة عليها يجب أن تكون مركبة في العادة، بحيث تأخذ كلا الجانبين في عين الاعتبار وتوازن بين الأشياء (Jenkins, 1991: 38)، 'وتُخرِج الاختلاف إلى حيز الوجود [. . .] وبالتالي الانفتاح' (Kress, 1989: 12)، فإن الحجج التي ترد في كتب التاريخ المدرسية غالبًا ما تشكل 'موقعًا لاختتامها' (Coffin, 2006: 199). ونتيجة لذلك، يتم إقناع القارئ بقبول وجهة نظرٍ واحدةٍ باعتبارها تحمل قوةً إيضاحيةً أو 'حقيقةً' أكثر من غيرها. وينسحب هذا الأمر بالذات على النوعين الفرعيين (sub-genres) للحجة، وهما **الاعتراض والإيضاح** اللذان يعرضان تفسيراتٍ متنافسةً تهدف إلى ترجيحها أو معارضتها. ويتكرّر توظيف هذين النوعين الفرعيين في الروايات التاريخية التي نستعرضها في هذه المقالة، مع أنها لا تستخدم النوع الفرعي الآخر، وهو 'النقاش' الذي 'يعرض نطاقًا يحظى بقدرٍ أكبر من الاتزان من وجهات النظر بشأن الماضي، من أجل الوصول إلى تفسير يقوم على أساس الدراسة المتأنية لجميع الأدلة المتوفرة' (Coffin, 2006: 80).

الاعتراض

عبارة عن 'نص تحليلي يعارض التفسيرات الشائعة التي يؤمن بها المرء'. وهو يسترعي الانتباه في ذات الوقت لحقيقة أنه يمكن تفسير الحدث بطرق متباينة (Coffin, 2006: 80).

وتكون مراحل الاعتراض على النحو التالي:

١. الاعتراض على الموقف.
٢. تفنيد الحجج.
٣. تقديم الدليل والحجة المقابلة.
٤. الاستدلال الذي يلخّص الحجة في جملة نقيضة. وبعد ذلك، تُقرأ هذه النقيضة، أو التفسير البديل، على أنها خلاصة منطقية وفكرة جديدة.

ويوظِّف إنبار (Inbar, 2004) الاعتراض على هذا النحو في نهاية الرواية التي يسوقها حول مجزرة قبية:

يقول البعض إن أفعال الانتقام [. . .] عملت على زيادة تسللات الفدائيين، بدل أن تضع حدًا لها كما كان يُؤمل منها (الاعتراض على الموقف). ولكن بعد حرب العام ١٩٥٦، توقفت عمليات التسلل وازداد الشعور بالأمن الشخصي في أوساط المواطنين الإسرائيليين. (تفنيد + نقيضة)

ففي هذا المثال، يسعى الرأي الإيجابي بشأن التداعيات الإيجابية التي خلّفتها المجزرة إلى تفنيد الرأي السلبي حولها أو تقويض مصداقيته.

الإيضاح

على خلاف النوع الفرعي 'الاعتراض' الذي يفنّد وجهات النظر المتنافسة، يقدم الإيضاح تفسيرات بديلة دون مناقشتها أو دحضها، ويخلق بالتالي الانطباع بوجود الاتّزان والنقاش على الرغم من أنه يفضي بالقارئ إلى وجهة نظر وحيدة (Coffin, 2006: 322–3). ولذلك، ففي ختام الفصل الذي يتطرق إلى مجزرة دير ياسين في كتاب نافي وآخرين (Nave et al., 2009: 142)، نجد هذا الإيضاح يرد بشأن 'هروب' الفلسطينيين والذي تسارعت وتيرته بفعل هذه المجزرة والمجازر الأخرى كذلك.

وبالنسبة لإسرائيل، فقد مكّنت هذه الظاهرة اليهود من بسط هيمنتهم وحل العديد من المشاكل، كالأمن والإسكان ونقص الأراضي، وهو ما أدى إلى تحديد الشخصية اليهودية لدولة إسرائيل.

وفي المقابل، فقد الكثير من الفلسطينيين منازلهم وأراضيهم والدولة الفلسطينية التي كان يمكن أن يقيموها بموجب القرارات الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة.

وبما أن تهويد الأرض و'تخليصها' يشكلان الأهداف النهائية التي يسعى المشروع الصهيوني إلى تحقيقها وبما أن الدولة الفلسطينية هي أكبر تهديدٍ تخشاه إسرائيل، فإن هذا الإيضاح يفضي إلى شرعنة المجازر التي سرّعت من وتيرة هروب الفلسطينيين ومكّنت اليهود من إقامة دولة يهودية، والقضاء على التهديد الذي يخشونه من إقامة دولة فلسطينية في ذات الوقت.

وتستخدم بلانك (Blank, 2006: 323) بنية الإيضاح باعتباره أسلوبًا بلاغيًا في التحايل. فعلى الرغم من أنها لا تأتي على ذكر أي من المجازر بعينها، فهي تناقش النتائج التي ترتبت على التطهير العرقي الذي نُفذ بموجب «الخطة داليت» (Plan D)، حيث تعرض وجهتيْ نظر من ناحية بنيوية، هما وجهة النظر 'اليهودية' ووجهة النظر 'العربية' فيما يتصل بهذه السلسلة من عمليات التطهير العرقي. وتعدّد وجهة النظر اليهودية الإنجازات على شكل نقاط:

- عززت هذه العمليات القوة العسكرية للمجتمع اليهودي.
- شكلت العمليات ترابطًا إقليميًا [يهوديًا] باعتبارها 'ميزةً إستراتيجية'.
- تركت هذه العمليات أثرًا إيجابيًا على المستوى الدبلوماسي لأنها ساهمت في إقناع الأميركيين والروس بأن المجتمع اليهودي قويٌّ من الناحية العسكرية ويستطيع أن يدافع عن نفسه.

وتعتبر المعلومات الواردة على شكل نقاط أبلغ مظهرٍ من مظاهر الشكلية الإرادية. ويشير كريس (Kress, 2003: 16) إلى أن 'هذه النقاط، كما يوحي اسمها،[١٦] تمثل رصاصاتٍ من المعلومات، فهي «تُطلَق» علينا، بصورةٍ مفاجئةٍ وتفرض التحديات أمامنا، وهي لا تكون مترابطةً أو منسجمةً مع بعضها البعض، ولا تحثّ المرء على التفكير فيها ودراستها، ولا تتسلّل إلى تفكيره. إنها قاسية ومباشرة ولا يمكن الجدال بشأنها'.

وفي المقابل، لا تُعرض 'وجهة النظر العربية' بذات الدرجة من التنظيم، حيث تُستهلّ بالقول بأن العرب كذلك، 'كلما غزوا حيًا أو مدينةً يهودية كانوا يطردون السكان اليهود منها، كما حصل في «غوش عتصيون» وحارة اليهود في القدس'. وتستطرد وجهة النظر المذكورة بالقول بأن 'العرب جلبوا الهلاك على أنفسهم حينما حاربوا اليهود [. . .] فقد انتهت الحرب بهزيمتهم وبتشريد مئات الآلاف من اللاجئين الذي تركوا ديارهم بسبب عدم رغبة المواطنين العرب الفلسطينيين وقادتهم في التوصل إلى اتفاقية'.

ويتعين على القارئ المشوَّش أن يقرأ النص مراتٍ عدة وأن يبحث عن وجهة نظر عربية. وربما يقبل القارئ الذي لا ينتابه مثل هذا التشويش هذه الوجهة على أنها 'وجهة النظر العربية'.

وبينما يعتبر هذا النوع من الإيضاح الساخر مقبولا أو مسلمًا به، يمثل الإيضاح 'الحقيقي' الذي لا يسعى إلى اختتام النقاش، وإنما إلى إثارته، أحد الأسباب التي أدت إلى جمع كتاب دومكا وآخرين (Domka et al., 2009) 'وإزالته عن رفوف المكتبات' مباشرةً بعد نشره، لأنه كان يقدم الرواية الفلسطينية حول عمليات التطهير العرقي التي نُفذت خلال العام ١٩٤٨ إلى جانب الرواية الإسرائيلية، باعتبارها 'رواية' وليس باعتبارها 'دعاية' وباستخدام المصادر الإسرائيلية والفلسطينية (من قبيل الكتب التي ألفها وليد الخالدي) في آنٍ واحد. وكانت أولى التغييرات التي طلبت وزارة المعارف إدخالها على الكتاب تتمثل في إزالة المصادر الفلسطينية من الرواية الفلسطينية واستبدالها بالنصوص الفلسطينية التي 'تقترب من الواقع' أو بالمصادر الإسرائيلية. وكان الرأي الذي أبدته الوزارة يقضي بأن المؤلفين لم يأخذوا في الاعتبار قوة النصوص الفلسطينية والأثر الذي كان يمكن تحدثه في نفوس الطلاب.[١٧] ومن بين الحجج التي ساقتها الوزارة أن 'عرض الدعاية العربية على نحوٍ يساوي في قيمته الرواية الإسرائيلية هو من قبيل عرض الرواية النازية باعتبارها متساويةً مع رواية اليهود بشأن الهولوكوست.'[١٨] وقد عمل الناشرون، كي يتمكّنوا من إعادة نشر الكتاب، على استبدال المصادر الفلسطينية بمصادر إسرائيلية في الجزئية المعنونة «الرواية الفلسطينية» وأضفوا عليها قدرًا أقلّ من الأهمية، دون تغيير بنيتها. وبعبارة أخرى، أعاد الناشرون إنتاج 'الإيضاح الساخر' كما جاء في كتاب بلانك (Blank 2006,). ويظهر هذا الفعل الأهمية الاجتماعية التي يحملها النوع (genre).

الخلاصة: الأساليب السيميائية التي تطبّقها الروايات التاريخية في شرعنة المجازر

تستند شرعنة المجازر، التي ندرسها في هذه المقالة، في جانبٍ كبيرٍ منها إلى **المنفعة**. فالمجزرة هي في جميع الأحوال نقطة انطلاقٍ تفضي إلى إفراز التغييرات الإيجابية على القتلة بمجموعهم، وتتكشّف قصتها بطريقةٍ تتم فيها موازنة الفعل السلبي أو حتى مكافأته من خلال نتائج إيجابية، كالانتصار أو الإنقاذ، ويتمخض الصراع بين الخير والشر عن انتصار الخير، وذلك ما يكون عبارة عن نتائج إيجابية بالنسبة لإسرائيل.

ولذلك، تتمثل الأنواع الرئيسة للشرعنة التي توظفها الروايات التاريخية التي نستعرضها في هذا المقام في **صناعة الخرافات** التي تتضمن المنطق الخرافي، و**الشرعنة التي تفرز الآثار المرغوبة** والتي يعزّزها **الانسجام مع القواعد العامة والتطبيع**. ويقدَّم الضحايا على أنهم 'أعيانٌ يجري تحييد الألم الذي وقع بهم'، وعلى أنه يتوجب التعامل معهم 'على أساس حسابٍ عقلانيٍّ نفعيّ' (Žižek, 1989).

وتتمثل الحجة الضمنية في هذه الروايات في أن: المجازر كانت مفيدةً بالنسبة لإسرائيل، وأن الأمم والجيوش كان يمكن أن تمارس ذات هذا الأمر في ظل ظروف مماثلة.

وفي العادة، ترتبط الاعتبارات الأخلاقية، التي تؤدي دورًا هامشيًا في هذه الروايات، بالاعتبارات السياسية. فالكتب تقدّم فعل القتل على أنه معركة مبررة، يغلب عليها الشر بالضرورة، أو باعتبارها انحرافًا عن القاعدة الإسرائيلية الرسمية. ومع ذلك، تقود هذه الروايات القارئ إلى نتيجة مفادها أنه يمكن شرعنة المجزرة في ظل الظروف التي ارتُكبت فيها لأن تداعياتها تتواءم مع الأهداف الصهيونية والقناعات اليهودية. وتعمل السلطة الشخصية وغير الشخصية التي يحظى بها المسؤولون العموميون والسلطة، والتي تمثل القدوة للآخرين، على تعزيز المزاعم التي تشرعن تلك المجازر.

أنواع الشرعنة

من أجل تفسير الرواية التي يحكمها المنطق الخرافي وتقديم المجزرة على أنها نقطة انطلاق نحو إحداث التغييرات الإيجابية، توظف الروايات الواردة في كتب التاريخ المدرسية أسلوب **إعادة التفسير أو التفسير**، وهما نوعان من أنواع السرد، بما يؤدي إلى إفراز تأثيرٍ بلاغيٍّ يتّسم بالموضوعية ويفضي بالقارئ إلى قبول وجهة نظرٍ وحيدةٍ باعتبارها حقيقةً مسلمةً.

وينطوي قالب الروايات التاريخية على المراحل التالية:

١. أساس شرعنة الفعل أو نزع الصفة الشرعية عنه.
٢. فعل القتل (مشرعن أو غير مشرعن +/ – التقييم الإيجابي للقتلة والضحايا).
٣. الآثار المترتبة على الشرعنة.
٤. الاستدلال (الاختياري) الذي يتضمن ادعاء الشرعنة بمسمّى الصورة الكبيرة والآثار الطويلة الأمد.

وتخدم هذه البنية نبرة الكتب التي تعتبر سلطويةً في جانبٍ كبيرٍ منها، وهي لا تستدعي إثارة النقاش حولها. وتستخدم الروايات المذكورة، وإن بدرجةٍ أقلّ، الاعتراض والإيضاح، وهما من أنواع الجدل، حيث يهدفان إلى عرض التفسيرات المتنافسة من أجل ترجيحها أو معارضتها أو استبعادها. وكما هي الحال في إعادة تفسير الفعل أو تفسيره، يتضمن هذان النوعان في أحوالٍ كثيرة 'الاستدلالات' التي تعزّز تفسيرًا وحيدًا وتحدد الخاتمة اللازمة له. وتوظِّف الروايات التاريخية التي تدرَّس للطلبة الأكبر سنًا نوع الأسئلة من أجل تشكيل موقف يدفع القارئ إلى اعتماد الشرعنة من خلال التجريد والتعميم والشكلية بصورة رئيسة.

الأساليب الاجتماعية الدلالية المستخدمة في الروايات التاريخية

تفرّق الشكلية بين الشرعنة ونزع الصفة الشرعية وتقدم الروايات الفلسطينية – في حال تقديمها – على أنها تقلّ في مصداقيتها عن مثيلاتها الإسرائيلية. وتُستخدم الشكلية من أجل التخفيف من المسؤولية المترتبة على فعل القتل وتوحي بأنه لا ينبغي أن تكون للمجازر تداعيات أخلاقية أو سياسية.

وتساعد **صيغة المبني للمجهول** في كبح الفاعل الاجتماعي أو إخفائه وتحويل الفعل الإنساني إلى ظاهرةٍ منفصلةٍ أو موضوعيةٍ أو 'طبيعيةٍ' أو مستقلة. وتساعد **الاستعارة النحوية** على إعداد حجج شبه منطقية للشرعنة، بحيث تغطّي فتراتٍ زمنيةٍ طويلةٍ من خلال اختزال العمليات والأحداث في أسماء.

وفي **التقييم**، يُستخدم التقدير الاجتماعي والرادع الاجتماعي الصريحين السلبيّين من أجل نزع السمة الشرعية عن القتلة أو فعل القتل، وهما يتحقّقان في العادة من خلال الحكم المبالغ فيه الذي يصدر عن السلطات الشخصية وغير الشخصية، من قبيل الزعماء والمؤسسات العسكرية أو الدينية أو السياسية. ويعمل **الاحترام الاجتماعي والتقدير الاجتماعي** الإيجابيين على الثناء على القتلة وتقديمهم على أنهم أشخاص لا يمكن أن يكونوا قد ارتكبوا أخطاءً غير مبرّرة.

وتستخدم **الأساليب المتعددة الوسائط** بغية إنزال القتلة في منزلة القدوة.

في الإجمال، تقدم الكتب المدرسية في إسرائيل، عن طريق التلاعب في الحقائق وتوظيف لغة الشرعنة، قتل الفلسطينيين على أنه فعلٌ ناجعٌ وفعالٌ يتواءم مع أهداف الصهيونية ومع العقيدة اليهودية، وهو عملٌ طبيعيٌّ تمامًا ولا غبار عليه في أوقات الحروب. وتنشئ المجموعة المتنوعة من الأدوات السيميائية الموظَّفة في هذه الكتب انغلاقًا سيميائيًا، بدلاً من الانفتاح.

الدلالات

تفضّل كتب التاريخ المدرسية المتداولة في إسرائيل خلق 'ماضٍ يمكن استخدامه' على الدقة (Wertsch, 2002: 45). وعادةً ما تقود هذه

الكتب الطلبة إلى نسيان ما يسميه ريكوير (Ricoeur, 2004) 'الدراما الأخرى' – وهي تلك الدراما المتعلقة بالضحايا والظروف التي أحاطت بهم – وإشاحة البصر عن المجازر والمآسي الأخرى والنظر إلى النتائج التي تفضّلها الأمة. وبهذه الطريقة، تعلّم تلك الكتب الطلاب خطاب القوة الذي يستخدمه الساسة والجنرالات، وتضع 'السياسة الصارمة التي تملي الالتزام بالحقيقة' (Coffin, 1997: 201) على المحكّ.

ويشير فان ليوين (Van Leeuwen, 2007: 94) إلى قيام علاقةٍ وثيقةٍ بين درجات الحقيقة التمثيلية ودرجات الواجب الاجتماعي. ففي هذا السياق، يتمحور الواجب الاجتماعي المقرّر للكتب المدرسية في إسرائيل على أداء وظيفةٍ تشبه 'محكمة التاريخ العليا'، التي توكَل إليها مهمة فهم 'الذكريات الجمعية «الحقيقية» المناسبة من أجل تضمينها في الرواية التاريخية الوطنية المقبولة، وذلك من بين جميع «نثرات الماضي» المتجمّعة' (Podeh, 2002: 3). وتندرج المجازر ضمن الذاكرة الجماعية الإسرائيلية– الصهيونية باعتبارها 'الجرائم التي أسّست الأمة، بصورةٍ مقبولةٍ تبرّئ دولة إسرائيل من اللوم الناشئ عن النكبة التي لا يزال الفلسطينيون يعيشونها.

يتمثل الادعاء العام الذي تتضمنه جميع الروايات الواردة بشأن المجازر في ما يلي: إن النتيجة الإيجابية (بالنسبة لنا) قد تتغاضى عن الأذى (التي لحق بهم) أو تتجاهله أو: إن الألم الكبير (الذي وقع عليهم) يمكن احتماله إذا كان يحول دون وقوع ألمٍ أكبر (بنا).

إن إصرار الكتب على تبرير الخطأ عن طريق خلق الروايات المشرعنة قد يفسّر لنا لماذا لا نجد في أي منها ما يسميه لا كابرا (La Capra, 2001: 125) الحيرة المؤكدة (emphatic unsettlement)، والتي تعني أن 'استجابة الجميع، حتى الشهود الثانويين (بمن فيهم المؤرخون) للأحداث المأساوية [. . .] يجب أن تُسجل في أسلوب خطاب المرء'. أما في السياق الإسرائيلي، فمن شأن التعاطف مع الفلسطينيين المخاطرة بنزع الصفة الشرعية عن الرواية الوطنية الإسرائيلية، وهو ما يُعَدّ بالتالي أمرًا غير مقبول.[١٩]

يلتحق الطلبة الإسرائيليون بالخدمة العسكرية بناءً على قناعتهم بأن التعاطف يرتبط بالعرق، وأن هذا التعاطف ليس له مكانٌ في العلاقات بينهم وبين جيرانهم الذين يعيشون تحت رحمتهم، وأن المنفعة هي المعيار الوحيد الذي يجب أن يوجّههم في سلوكهم. وتظهر هذه العقيدة جليةً في تصريحات يوسي بيلين، أحد زعماء اليسار الإسرائيلي، الذي قال في سياق مطالبته الحكومة بوقف المجزرة التي كانت ترتكبها في قطاع غزة: 'هذا عمل غير إنساني، وغير يهودي، وهو فوق كل شيء غير مُجدٍ'.[٢٠]

[مترجم عن الانكليزية. ترجمة: ياسين السيّد]

المصادر

Antaki, C. (1994) *Explaining and Arguing: The Social Organization of Accounts*. London: Sage.

Avieli-Tabibian, K. (1999) *Journey into the Past: Chapters in History for Grades 8–10*. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies.

Avieli-Tabibian, K. (2001) *The Age of Horror and Hope: Chapters in History for Grades 10–12*. Tel Aviv: The Centre for Educational Technologies.

Bar-Navi, E. (1998) *The 20th Century: A History of the People of Israel in the Last Generations, for Grades 10–12*. Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv.

Bar-Navi, E. and Nave, E. (1999) *Modern Times Part II – The History of the People of Israel, for Grades10–12*. Tel Aviv: Sifrei Tel Aviv.

Barthes, R. (1957) *Mythologies*. *Paris: Editions de Seuil*.

Blank, N. (2006) *The Face of the 20th Century*. Tel Aviv: Yoel Geva.

Chiffrin, D. (1988) Discourse Markers. Cambridge: Cambridge University Press.

Coffin, C. (1997) 'Constructing and Giving Value to the Past', in F. Christie and J.R. Martin (eds) *Genres and the Institutions*. London: Continuum.

Coffin, C. (2006) *Historical Discourse*. London: Continuum International.

Domka, E., Urbach, H. and Goldberg, Z. (2009) *Nationality: Building a State in the Middle East*. Jerusalem: Zalman Shazar Centre.

Dray, W.H. (1957) *Laws and Explanations in History*. London: Oxford University Press.

Fairclough, N. (2003) *Analyzing Discourse: Textual Analysis for Social Research*. London: Routledge.

Finlayson, J.G. (2005) *Habermas: A Very Short Introduction*. Oxford: Oxford University Press.

Habermas, J. (1975) *Legitimation Crisis* (trans. T. McCarthy). Boston, MA: Beacon Press.

Hodge, R. and Kress, G. (1993) *Language as Ideology*. London: Routledge.

Inbar, S. (2004) *50 Years of Wars and Hopes*. Tel Aviv: Lilach.

Jenkins, K. (1991) *Rethinking History*. London: Routledge.

Kress, G. (1989) *Linguistic Processes in Sociocultural Practice*. Oxford: Oxford University Press.

Kress, G. (2003) *Literacy in the New Media Age*. London: Routledge.

La Capra, D. (2001) *Writing Shoa, Writing Trauma*. Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.

Lyotard, J.F. (1984) *The Postmodern Condition*. Manchester: Manchester University Press.

Lyotard, J.F. (1988) *The Differend: Phrases in Dispute*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

Lyotard, J.F. (1992) *The Postmodern Explained: Correspondence 1982–1985*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press.

Martin, J.R. and White, P.R.R. (2005) *The Language of Evaluation: Appraisal in English*. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Martin Rojo, L. and Van Dijk, T.A. (1997) '"There was a Problem, and it was Solved!» Legitimating the Expulsion of «Illegal» Immigrants in Spanish Parliamentary Discourse', *Discourse & Society* 8(4): 523–67.

Morris, B. (2000) *The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited*. Cambridge: Cambridge University Press.

Nave, E., Vered, N. and Shahar, D. (2009) *Nationality in Israel and the Nations: Building a State in the Middle East*. Tel Aviv: Rehes.

Noth, W. (1995) *Handbook of Semiotics*. Indianapolis, IN: Indiana University Press.

Pappe, I. (2006) *The Ethnic Cleansing of Palestine*. London and New York: Oneworld.

Peled-Elhanan, N. (2009a) 'Layout as Punctuation of Semiosis: Some Examples from Israeli School Books', *Visual Communication* 8(1): 91–116.

Peled-Elhanan, N. (2009b) 'The Geography of Hostility and Exclusion', *Visual Literacy* 27(2): 179–208.

Podeh, E. (2002) *The Arab-Israeli Conflict in Israeli History Textbooks* 1948–2000. Westport, CT: Bergin and Garvey (Greenwood).

Ricoeur, P. (1983) *Time and Narrative*, vol. 1. Chicago, IL: Chicago University Press.

Ricoeur, P. (2004) *Memory, History, Forgetting*. Chicago, IL: Chicago University Press.

Rosental, R. (2000) *Kaffer Kassim: Events and Myths*. Tel Aviv: Hakibbutz Hameuchad.

Van Dijk, T.A. (1997) *Ideology: A Multidisciplinary Approach*. London: Sage.

Van Leeuwen, T. (1996) 'The Representation of Social Actors', in C.R. Caldas-Coulthard and M. Coulthard (eds) *Texts and Practices: Readings in Critical Discourse Analysis*. London: Routledge.

Van Leeuwen, T. (2000) 'Visual Racism', in M. Reisigl and R. Wodak (eds) *The Semiotics of Racism*, pp. 333–50. Vienna: Passagen Verlag.

Van Leeuwen, T. (2005) *Introducing Social Semiotics*. New York: Routledge.

Van Leeuwen, T. (2007) 'Legitimation in Discourse and Communication', *Discourse & Communication* 1(1): 91–112.

Van Leeuwen, T. (2008) *Discourse and Practice: New Tools for Discourse Analysis* (Oxford Studies in Linguistics). Oxford: Oxford University Press.

Van Leeuwen, T. and Wodak, R. (1999) 'Legitimizing Immigration Control: A Discourse-Historical Analysis', *Discourse Studies* 1(1): 83–118.

Wertsch, J. (2002) *Voices of Collective Remembering*. Cambridge: Cambridge University Press.

White, H. (1973) *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europe*. Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.

Yiftachel, O. (2006) *Ethnocracy – Land and Identity Politics in Israel/Palestine*. Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press.

Zach, N. (1996) *No Rattling of Sabers: Israeli War Poetry 1940–1990*, p. 140 (trans. E. Raisen). Austin, TX: The Center for Middle Eastern Studies and the University of Texas Press.

Zertal, E. (2004) *Death and the Nation*. Tel Aviv: Dvir.

Žižek, S. (1989) *Violence*. New York: Picador.

الهوامش

١ تعتبر الكتب المدرسية المتداولة في إسرائيل كتبًا تجاريةً، ويستطيع المعلمون اختيارها من بين مجموعةٍ كبيرةٍ من الكتب. ولكن يتعين الحصول على موافقة وزارة التربية والتعليم على جميع الكتب التي يختارها المعلمون. وفي هذا السياق، فقد خضع أحد الكتب، وهو كتاب دومكا وآخرين (Domka, et. al., 2009)، الذي صادقت عليه وزارة التربية التعليم في حكومة كاديما للتعديل على يد وزارة التربية والتعليم في الحكومة التي شكّلها حزب الليكود في ٢٠٠٩، حيث أدخلت الوزارة عليه تغييراتٍ جذريةً قبل أن تعيد إقراره من جديد.

٢ هذا التعريف مقتبسٌ من قاموس ميريام ويبستر الإنكليزي على شبكة الإنترنت (Merriam Webster online).

٣ القوات المسلحة الرسمية التي كانت قائمةً قبل قيام الدولة.

٤ E. Amir, 'Not a Dozen but a Hundred and Ten', Haaretz, 22 May 2009.

٥ Y. Lapidot, Daat – Jewish Studies. Available at: www.daat.ac.il/daat/history/al/b12

٦ من المصادر التي تناولت هذه المجزرة ما كتبه ت. سيغف (T. Segev, Back to Kaffer Kassim)، وهو منشور على الموقع الإلكتروني: http://www.haaretz.co.il/hasite/pages/ShArtPE.jhtml?itemNo=779296&contrassID=2&subContrassID=13&sbSubContrassID=0.

والمقابلة التي أُجريت مع بنيامين كول (Benyamin Kol)، جريدة «هآرتس»، ٨ تشرين الأول ٢٠٠٨. كما يتطرق روزنتال إلى هذه المجزرة في كتابه (Rosental, 2000).

٧ وزير المعارف، تامير (Tamir)، جريدة «هآرتس»، ١٦ شباط ٢٠٠٩.

٨ انظر أور كاشتي (Or Kashti)، إسرائيل تقدم مساعدات للطلبة المحتاجين من أبنائها تفوق تلك التي تقدّمها لنظرائهم من العرب (جريدة «هآرتس»، ١٢ آب ٢٠٠٩). ومن الجدير بالذكر أن نسبة المخصّصات التي ترصدها الحكومة الإسرائيلية لكل طالب من طلاب المدارس الثانوية العربية لا تتجاوز في متوسطها ٢٠٪ مما تخصصه للمدارس الثانوية اليهودية.

٩ من الأمثلة الحديثة على ذلك القانون الذي يجيز للجامعات منح الأولوية في مخصّصات السكن لقدامى المحاربين في الجيش، وهم لليهود. وقد تم سنّ هذا القانون ردًا على حكمٍ أصدرته محكمةٌ تحظر فيه القاعدة الممارسة في جامعة حيفا (موقع جريدة «يديعوت أحرونوت» (Ynet news) على شبكة الإنترنت، ٢٠ آب ٢٠٠٦). فقد تسبّب هذا القانون في إلغاء حكم المحكمة وتقنين القاعدة المذكورة.

١٠ في يوم ٢٠ أيلول ٢٠٠٧، أعلن عضو الكنيست يوفال شتاينيتس، رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست، على الإذاعة الإسرائيلية أنه يؤيد قتل المدنيين في المناطق التي تُطلَق منها صواريخ القسام. وقال شتاينيتس، في سياق ردّه على المستشار القانوني للحكومة الذي حذّر من ارتكاب جرائم حرب: 'تستند قدرة إسرائيل على الردع إلى مبدأ النار مقابل النار والرعب مقابل الرعب، وأولئك الذين يشجبون هذا المبدأ يتجاهلون أمن المواطنين الإسرائيليين ويضربون به عرض الحائط'. وهذه المقابلة منشورة على الموقع الإلكتروني: steinitz.likudnik.co.il.

١١ في يوم ١٥ آذار ٢٠٠٨، صرح الممثل شلومو فيشينسكي (Shlomo Vishinsky) على التلفزيون الإسرائيلي بأن الناطق الرسمي باسم الجيش دعاه وأخبره بأن جيش الدفاع انتقم لمقتل نجله، الذي قُتل في عمليةٍ عسكريةٍ في قطاع غزة، باغتيال 'الأشخاص' الذين أرسلهم قاتله. وفي وقتٍ لاحق، أرادت الإذاعة الإسرائيلية معرفة ما إذا كان الاغتيال قد وفّر أي عزاءٍ أو مواساةٍ لفيشينسكي، حيث قال: «لقد حرّض القادة ابني البكر، الذي كان جنديًا في الوقت الذي قُتلت أخته على يد انتحاريّ فلسطيني من الضفة الغربية، على الأخذ بثأرها من خلال ممارسة 'أعمال الانتقام' في لبنان.

١٢ وهذه النتيجة، التي ترد بمثابة حقيقةٍ تاريخيةٍ، هي في الواقع مقتبسةٌ من مقالة كتبها قائد المجزرة، أريئيل شارون، بعد ٣٩ سنةً من ارتكابها.

١٣ للإطّلاع على المزيد من المعلومات حول تصميم الشرعنة باعتبارها تشكيلاً للعلامات (punctuation of semiosis)، أنظر (Peled-Elhanan, 2009a).

١٤ تشير هذه الكلمة (Yishuv) في مدلولها إلى اليهود الذين كانوا يقطنون أرض فلسطين في الفترة الممتدّة من الحكم العثماني في فلسطين حتى خضوعها الانتداب البريطاني (ملاحظة المترجم).

١٥ الكتابان الوحيدان اللذان يسلّمان بوجود مثل هذا الأمر هما كتابا دومكا وآخرون (Domka et al., 2009) ونافي وآخرون (Nave et al., 2009).

١٦ يأتي هذا الوصف في سياق الترجمة الحرفية لعبارة (bullet points) الإنجليزية، وهي تعنى بمدلولها الحرفي نقاطًا ترد على شكل رصاصات (ملاحظة المترجم).

١٧ تزافير غولدبيرغ (Tzafrir Goldberg) – أحد مؤلفي الكتاب، اتصال شخصي.

١٨ أور كاشتي (Or Kashti)، جريدة «هآرتس»، ١٦ تشرين الثاني ٢٠٠٩.

١٩ وفقًا لأحكام القانون – الذي أقرّته لجنة التشريعات والدستور في البرلمان الإسرائيلي- تُسحب الموازنات من البلديات التي تسمح بإحياء ذكرى نكبة ١٩٤٨. أنظر الموقع الإلكتروني: http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-3852834,00.html.

٢٠ مقابلة تلفزيونية، ٢٥ كانون الثاني ٢٠٠٨.